سيرة أحمد خالد توفيق

"حياته وأدبه وإلهاماته"

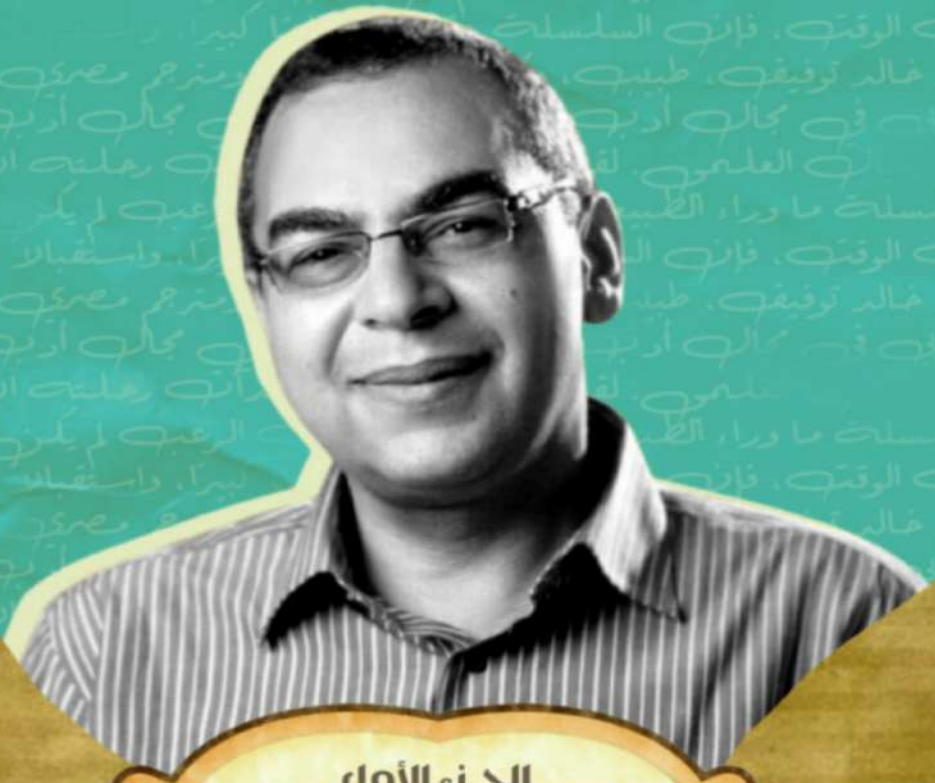

الجزء الأول

اسمُه خالِدٌ

محمود حافظ

KOTOPIA PUBLISHING HOUSE
كتوبيا للنشر والتوزيع

سيرة ذاتية

أين حقيقتي؟ أين معاناتي العاطفية؟ مشاكلي مع التدخين؟ مخاوفي وإحباطاتي؟ لحظات نصري ولحظات هزيمتي.. كل هذا لن يعرفه أحد سوى من دنا مني إلى مسافة سنتيمترات وسمع سعالي ليلًا.. وأصغى لصوت اصطكاك أسناني بردًا.. وخاض معي مغامرة اختيار ربطة عنق قبل أن أقابل خطيبتي.

أحمد خالد توفيق

على لسان بطله رفعت إسماعيل، متحدثًا عن فن السيرة الذاتية

عن المُقدمات نتحدث

كان يحب المقدمات كثيرًا..

يبدأ كل كتيب له بمقدمة مختلفة، يقترب فيها من القارئ، كعادته، كأنه يحدثه، يجالسه، بل ويطلب منه مباشرة، متخطيًا حاجز الورق: أحضر لنا كوبين من الشاي بالنعناع!

لكنه -بخلاف هذه الحميمية والبساطة في سرده وعلاقته بالقراء- كان وضعه في الحياة أكثر تعقيدًا، ومنذ وفاته في العام ٢٠١٨، ظل أحمد خالد توفيق شخصية جدلية بامتياز، زيادة عمّا كان في حياته القصيرة نسبيًا (٥٥ عامًا) ومشواره الأدبي الأقصر (٢٥ عامًا)، فهو عند البعض أديب عظيم بالمعنى الحرفي للكلمة، وعند البعض الآخر مجرد كاتب خفيف مُسلٍ، وعند فصيل ثالث هو أقل من ذلك!

maktabbah.blogspot.com

وبالعودة إلى المقدمة، فصحيح أننا نملك واحدة فقط، لكننا -مُختصِرين- سنذكر ظروف كتابة هذا الكتاب أولًا، ثم نعود سريعًا إليه..

إلى أحمد خالد توفيق، ربما مع الشاي بالنعناع إن أحببت.

****

في السلسلة المصرية المُسماة «روايات عالمية للجيب» لم تكن الرواية العالمية -محتوى الكتيب الأساسي- تبدأ مباشرة مع أول صفحة، بل كان القارئ يجد بضع صفحات عن الكاتب العالمي أولًا، سيرة مُختصرة لطيفة عنه، حياته وأدبه وإلهاماته.

هذه العادة في الحقيقة لم تبدأ مع السلسلة منذ أول أعدادها، بل اعتمدها المترجم الذي تسلم العمل فيها مع العدد السادس، نعم هو أحمد خالد توفيق ذاته، الذي يدور كتابنا هذا حوله، كسيرة مختصرة لطيفة عنه، حياته وأدبه وإلهاماته!

****

هكذا..

ليس من الغريب أن أكتب عملًا عن أحمد خالد توفيق، وهو الذي علمني معنى سِيَر الأدباء في الأساس، أما لماذا كتبت سيرة الرجل أصلًا؟ فالإجابة في السيرة نفسها! إنها أبلغ من أي كلمات موجزة أسردها هنا في عجالة..

لماذا أطيل عليكم إذن؟! دعوني أدخل في المفيد..

هذه السيرة مكتوبة على نمط القصاصات الذي يعرفه قراء الدكتور جيدًا، واستخدمه في أكثر من عمل مثل «أسطورة الغرباء»، ببساطة هو تجميع لكل ما ذُكر تقريبًا عن الرجل في وسائل الإعلام المختلفة، المرئية والمقروءة، المشهورة والمنسية، الباقية والمحجوبة!

بالتالي.. ما الجديد الذي سأقدمه إذن عن توفيق؟ أولًا هو التجميع نفسه، والذي لم يتحقق من قبل بهذا الشكل، على رأي الدكتور نفسه في نبذة كتابه «دماغي كدا»

"لعلك قرأت بعض هذه المقالات، ولعلك قرأتها كلها، لكن اجتماعها في كتاب واحد يعطيك نظرة أشمل، وأعمق."

بالضبط.. سنعطي حياة الرجل وأدبه وإلهاماته حقهم في الوجود بين دفتي كتاب واحد، ومن ثم يمكننا فهم عالمه ومسيرته بشكل أفضل وأشمل وأعمق، هذه واحدة، أما الأخرى فهي مصادر الكتاب المختلفة كما أسلفت القول، فمنها المنسي الذي يكاد يضيع في الإنترنت شاسع الحدود، وقد لا يتذكره أحد إذا ظل في الزحام القديم المُظلم، ثم الأهم منه.. المصادر المحجوبة التي أكل عليها الدهر وشرب، اختفت من نتائج البحث وبقي بعضها في الأرشيف، ولم يعد الوصول إليها سهلًا أو سريعًا.

يتبقى الآن بعض إلماحات على السيرة ومنهجها، استقيتُ أغلبها هي الأخرى من الدكتور رحمه الله!

- سنعتمد أحيانًا على قصص الدكتور نفسها، لربطها بحياته، ومحاولة فهم وقائعها، فهو نفسه من قال «**هناك مقاطع معينة يمكنك بسهولة أن تعرف أنها رأي الكاتب نفسه وليس الراوي فقط**»١

- بعض المواقف في حياته ستقودنا مباشرة إلى شخصيته بطريقة أقرب للتحليل النفسي، وهذا نفس ما طبّقه الدكتور على الكاتب الأمريكي «ستيفن كينج» حين تحدث عن موقف أبيه الذي ذهب لشراء السجائر في طفولته ولم يعد قط! هنا قال توفيق عنه «**لو كنا خبراء في تحليل النفس لقلنا إن هذا سبب له عدم الإحساس بالأمان بقية حياته، لكننا لسنا كذلك لحسن الحظ!**»٢

- انتقد توفيق من قبل عدم موثوقية المعلومات الدقيقة التي يذكرها الباحثون، قائلًا «**قدّم المذيع معلومة عن فريق البيتلز فأخطأ فيها. تضايقت بينما سخر الجالسون مني لأنها معلومة تافهة أصلًا. الفكرة هي أنك يجب أن تؤدي عملك بإتقان حتى لو كنت تتحدث عن ألوان مايوهات شاكيرا أو أنواع البراغيث في القطب الشمالي. لو كنت ترى الموضوع تافهًا فلا تتكلم عنه من الأصل**»٣ ولهذا فإننا لن نذكر شيئًا مهما كان تفصيليًا، إلا أحلناه إلى مصدر ما، كما سترى بنفسك على طول الكتاب، مع ترقيم المصادر -كما لاحظت للتو مع ذكر أقوال الرجل- وعدم الاعتماد على الهوامش، لكثرة الإحالات والتفاصيل.

- لن تكون قصتنا في اتجاه واحد للأمام على طول الكتاب، فالسيرة شديدة التشعب، والتفاصيل مترابطة للغاية، خاصة بين الحياتين الواقعية والأدبية لتوفيق، إذن لا مفر من القفزات الزمنية، ودمج الحاضر بالمستقبل، منعًا لذكر الماضي مجددًا في الفصول المستقبلية! وإن كنّا لن نعدم السرد الخطي التراتبي أيضًا، لكنه مُحاط بالحكايا العديدة مختلفة الأزمنة.

- بلا مفر، ستكون مقالات وحوارات الرجل من مصادرنا الهامة جدًا، وهنا يقوى الإغراء بشدة لنقل كلماته كما هي، خاصة مع شاعريتها وجمالية سردها، إلا أنني سأحاول تجنّب «النسخ» قدر الإمكان، فالمصادر متاحة بالأصل، ودورنا تقديم الجديد.

- منعًا للإملال، وعلى طريقة طه حسين في الأيام، سنذكر عدة أسماء لكاتبنا، فهو أحمد وخالد وخالدنا وصاحبنا! أما حين نتحدث عن الرجل كبيرًا، فسنذكره مباشرة بـ«الدكتور»

وحسب.

****

يتبقى لنا شيء واحد فقط..

أن نذكر سيرة توفيق نفسها موجزة بنفس أسلوبه في «روايات عالمية للجيب» كي نتذكر سريعًا من هو، وماذا ترك، وما سنفصّله أكثر خلال سيرته، هذا مهم فعلًا لمن لا يذكرون الرجل أو يعرفونه جيدًا.. وطبعًا الذين لا يعرفونه على الإطلاق..

إنها رشفة سريعة ضرورية، قبل أن نعب معًا الكأس كله كما أتمنى، ونبحر في حياة قلم ترك أثرًا واضحًا وزخمًا مستمرًا، وهذا ما لا يختلف عليه محبو الرجل أو حتى كارهوه.

المؤلف

هوارد فيليب لافكرافت.. إدجار آلان بو.. روبرت لورنس شتاين!!

لسبب ما تصرّ أسماء كُتاب أدب الرعب أن تكون ثلاثية ذات رنين كابوسي مميز في نهايتها، وإن كانت النماذج السابقة كلها أمريكية، فيبدو أن هذه السمة العجيبة سافرت عبر المحيط إلى الشرق الأوسط وبالتحديد إلى مصر، لتتمثل في اسم أحمد خالد توفيق، أول من تخصص تقريبًا في أدب الرعب بمفهومه المعروف على المستوى العربي.

يُنسب إليه كذلك أنه صاحب صحوة قراءة بارزة في هذا الجيل، إذ شكّل مع مواطنه نبيل فاروق رافدين مهمين في أدب الشباب، وبقيا في تصنيف «الأعلى مبيعًا» منذ ظهرا متعاقبين في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، وعاشت شعبيتهما واضحة جلية، رغم أن معظم إرثهما في صورة كتيبات بحجم الجيب.

وُلد توفيق عام ١٩٦٢ بمحافظة طنطا وترعرع فيها، عشق الفن منذ صغره، خاصة السينما التي لم يَخفِ يومًا شغفه بها، عاش قارئًا نهمًا في كل المجالات تقريبًا، مع ميله الطبيعي للأدب والحكي.

في العام ١٩٩٣ نشر أول أعماله بعنوان «أسطورة مصاص الدماء» مستهلًا سلسلة طويلة تتناول الأساطير المخيفة عبر كل الثقافات والبلدان أسماها «ما وراء الطبيعة»، وفيها قدّم أحد أشهر الشخصيات وأبرزها تأثيرًا في مشواره، وهو الطبيب الكهل رفعت إسماعيل، نموذج صريح لنقيض البطل Antihero حيث الصفات العادية أو الأقل من العادية، نحيف متقدم في السن مُصاب بعدد كبير من الأمراض، ناهيك أن أحدًا لم يتهمه يومًا بالوسامة، لكن «رفعت» تسرّب لقلوب جميع قرائه بكل سلاسة، عبر سخريته الطريفة وبساطة حديثه وثقافته العالية.

نالت الفكرة نجاحًا دفع مؤلفها لتجربة فرضية أخرى عبر سلسلة بعنوان «فانتازيا» بطلتها نقيض بطل آخر، فهي عبير عبد الرحمن الخالية من أي جمال، لكنها تمتلك خيالًا بحجم

المحيط، مما يؤهلها للطواف حول كل أعمال الأدباء الآخرين، في قصص ذات لمسة نقدية خفيفة، وأخيرًا جاءت سلسلة «توفيق» الثالثة سفاري لتكون خير مخرج لثقافته الطبية، إذ يعيش بطلها الطبيب علاء عبد العظيم مع أمراض القارة السوداء ومشاكلها العسيرة دومًا.

نشر الرجل كتبًا عديدة في الأدب الساخر، المقالات الإنسانية، السينما عشقه الأبدي، مجموعات قصصية في أدب الرعب، لتمتد أعماله خارج السلاسل أيضًا وتتوسع قاعدة قرائه.

أما في العقد الأخير من حياته، فقد بدأ مشروعًا آخر بروايات عديدة للبالغين، أشهرها يوتوبيا والسِنجة وفي ممر الفئران، وكلها تدور في الواقع المصري والعربي، وحاز بها الجوائز الأدبية والشعبية الإضافية فوق شهرته السابقة.

رحل توفيق عام ٢٠١٨ متأثرًا بمرضه القلبي، تاركًا آخر أعماله «شآبيب» بسيناريو كابوسي يتشتت فيه العرب في الأرض، ولا تزال بعض أعماله تظهر بعد وفاته، حائزة الاهتمام من جمهوره، ومجددة الحديث عن تقييم إرثه.

الفصل الأول

عن المنبع نتحدث

إنني أندهش من الحد الذي يمكن أن يذهب له الأهل لإرضاء أبنائهم. كان أبي من ذلك الجيل من الآباء الذين يجمعون بين الحزم الشديد والاستعداد لعمل أي شيء حلال وقانوني يسعد أطفالهم

أحمد خالد توفيق٦

من رَحِم مدينة طنطا الوادعة، وفي أجواء ستينية هادئة نسبيًا، بين جدران البيت الكائن في ١ شارع جامع المنشاوي فوق قهوة لمنوس١، حضر «أحمد خالد توفيق أحمد إبراهيم»٢ للدنيا بتاريخ الأحد الموافق ١٠ يونيو ١٩٦٢، قبل ثورة اليمن بشهور قلائل، لينضم إلى أمينة رزق، وأسامة أنور عكاشة، وخيري بشارة، وحجازي، ومصطفى صادق الرافعي، وغيرهم من الأسماء الطنطاوية اللامعة، في الفن والأدب تحديدًا، أما على مستوى العالم، فهو يشارك الممثلة الأمريكية جينا جيرشون نفس تاريخ الميلاد باليوم والسنة، وهو الذي سيولع بالأفلام طيلة حياته، وسيكون له نحو السينما الأمريكية تحديدًا حبّ عميق، وكتابات عديدة عن روائعها.

لا شك أن قدومه كان حدثًا سعيدًا لوالده السيد توفيق أحمد إبراهيم، دمنهوري الأصل٢٠، فولده حلّ أخيرًا بعد ثلاث بنات، الكبرى ألفت والوسطى إيمان، والثالثة أميرة التي تكبر آخر العنقود أحمد بـ ٦ سنوات٣، يمكننا بشيء من الخيال أن نستحضر مشهد الأخوات الثلاث محيطات برجلِهن الصغير مع العائلة بعد سبعة أيام، مُغنيات «حلقاتك برجلاتك» بينما يحمد رب الأسرة ربه أن رَزَقه البنات والبنين.

جاء اسمه الأول مُركبًا، خليطًا من اسم الجد «أحمد» مع صفة «خالد» التي سيناديها بها خاصته طوال عمره٤، أما الأب توفيق فمدير شركة كبرى للغزل والنسيج٥، يشبهه ابنه بلورد بريطاني شديد التأنق والوقار، لا يتخلى عن البدلة والصديري وربطة العنق٦، مُثقّف يُقدّس

الكلمة وعلّم نفسه بنفسه٧، بل ويجيد أربع لغات، إلى جانب لغة الإسبرانتو٨ التي اخترعها الطبيب البولندي لودفيك زامنهوف عام ١٨٨٧، ليسهّل التلاقي بين الثقافات والشعوب والأعراق، بعدما ظهرت «عصبة الأمم» وانتشر الأمل بتحويل العالم كله لدولة موحدة، ومن ثم يتكلم الناس جميعًا لغة عالمية مشتركة، الحلم الذي لم يكتمل كما نعرف.

لا يحكي لنا خالد كثيرًا عن جغرافيا بيته الواسع٩ وجولاته في أعوامه الأولى، اللهم إلا ركنًا واحدًا سحره وسحر كل من رآه من أصدقائه، كان الأب هو صاحب هذا الزكن وخازنه أيضًا، نتحدث عن المكتبة العملاقة التي وصفها أصدقاء خالد فيما بعد أنها «مرعبة»١٠، لا يوجد كتاب صدر في أي فرع من فروع المعرفة إلا وكان موجودًا بها٢٥، باحتوائها على كل أنواع المجلات والجرائد -بترتيب صدورها- والكتب والقواميس، ومن هنا تبدأ الشرارة الأولى في عقل خالد، فتشتعل مُخيّلته الوليدة إثر الكنز الورقي القريب منه.

بقامته القصيرة بعد، سيقف متطلعًا بإكبار لكل تلك الكتب التي حتمًا تفوقه طولًا في رفوفها العالية، صورة سينمائية مثالية لطفل ضئيل الحجم أمام مستقبله الشاسع، بحرْ الثقافة والعلم والأدب، تتجاور عناوين مرعبة لا يعرف كيف يتهجأها.. تشيكوف والمازني وفلوبير وطه حسين١٨، فيقرر أن يلقي بنفسه بين الكلمات والسطور والفقرات، هل شعر أن كعوب الكتب مختلفة السماكة تُمثل شيئًا ما أكبر من مجرد أوراق وأحبار؟ تعني أسفارًا ورحلات وعلومًا ومغامرات؟ ربما كان الأب يقرأ له بالفعل بعضها، قبل أن تمتد يده إليها في يوم ما ليبدأ إبحاره الخاص بين الصفحات، والفحصلة أن الصغير وجد «جوجل» ستينياتي في منزله.

يحكي خالد بالفعل عن عثوره على نسخة عتيقة من «ألف ليلة وليلة» وراء أحد أرفف المكتبة١١، مجموعة أوراق مصفرّة مليئة بالكلمات التي تحذفها الرقابة من الطبعات الفهذبة، فورًا شعر بأنها أثر فريد يستحق القراءة، غير أنه لم يفهم الكثير وأخفى لُقيته في سريره، ليكتشف الأب ضياع مخطوطه الثمين بعد عامين ويعجز عن السؤال عنه لشائكية محتواه! فهل من المعقول أن يسأل ابنه: هل وجدت كتابًا مُتخمًا بالألفاظ النابية؟

ومع هذا، يعترف الدكتور أن والده لم يحتفظ بهذه النسخة لجرأتها وإنما لقيمتها، كما توضح ثقافته العالية التي تأكدت مرارًا، بل وصل ولع الأب بالكتب لدرجة مخيفة، دفعته للاحتفاظ بالكتاب المحظور «الحرب النفسية: معركة الكلمة والمعتقد» لرئيس المخابرات

المصرية صلاح نصر، في الوقت الذي صار مغضوبًا عليه من الدولة، وبالتالي فكتابه دليل عِمالة وإدانة لا لبس فيه، حتى أن خالد بعقلية كاتب الرعب القلقة ظل يتخيل لحظة اقتحام الشرطة للبيت وإيجاد هذا الدليل الملعون ثم قتل العائلة بالرصاص، كل هذا ولم يجرؤ السيد توفيق على التخلص من الكتاب الغريب فأخفاه -مثلما فعل ابنه- تحت الفراش!١٦

الواقع أن كلمات خالد وأصدقائه ترسّخ مكانة الأب أكثر من غيره في حياة مؤلف المستقبل، لقد مثّل له المنبع والجذر لعُمر ممتد من القراءة والأغاني والسينما والشِعر، والبداية من المكتبة الضخمة، حتى أنه استلهمها في العدد ٦٠ من «ما وراء الطبيعة» والمُسمّى «المتحف الأسود».

في هذا الكتيب يتلقى بطل السلسلة رفعت إسماعيل دعوة من «مازن» الرجل المُثقف المَوحي بالذكاء، ليعرض عليه مكتبة ضخمة لا يعرف رفعت محتوياتها لأن كعوب كتبها الضخمة خالية من أي عناوين، وبعد حديث قصير يكشف مازن عن باب سري خلف المكتبة يقود للمتحف الأسود حيث الغموض والغرابة والمقتنيات الفريدة.

يقرّ الدكتور بفضل أبيه في منحه كنزًا ثقافيًا بشكل مجاني تمامًا، فهو لم يكن ليستطيع الحصول على كل هذه الكتب من حر ماله٧، خاصة أن الأب أنفق على المكتبة كل ما يستطيع بخلاف أساسيات الحياة، قائلًا لصغيره ذات مرة:

- لقد كان بوسعي أن أبني عمارات بثمن الكتب. ولكني فضلت أن تكون عقول أبنائي هي العمارات التي أنشئها ١٩

أيضًا لم يكتفِ الأب بهذا، بل شجّع ابنه وكان أول من يرى فيه بذرة المؤلف الناجح١١، ولم يجلب التلفاز للبيت إلا حين بلغ خالد العاشرة٢١، وسواء تعمد هذا أم لا، فقد تربى ابنه على الكتاب أولًا، وكأنه ينفذ نصيحة الكاتب النرويجي العظيم رولد دال حين قال:

- أرجوك.. أتوسل إليك.. تخلص من جهاز التلفزيون، وضع مكتبة جميلة بدلًا منه.

****

لا شك أن ذاكرة خالد القوية تشكّلت في هذه السن الصغيرة، لتكوّن ثقافة موسوعية يعرفها جيدًا كل من قرأ له وامتنّ لدوره في تثقيفه دون غطرسة الأسلوب المدرسي الممل.

لا بد هنا أن نركّز على هذه الفضيلة في كتابات الرجل، ونذكر أحد أهم جوانب كتبه تميزًا، وهي ما ينثره من معلومات عن كل شيء تقريبًا في أدبه، ثقافة عامة مُدققة في الطب والأدب والشعوب والفنون والجغرافيا والتاريخ والأساطير وكل ما يجعل القارئ شغوفًا بتلقي المعلومة كأنه يخوض اكتشافها بنفسه، حتى أنك تتساءل: هل يكتب الرجل بجوار مكتبة عملاقة فعلًا؟ فينتقي مع كل فقرة كتابًا ما ويتخير منه معلومة معينة ليدبجها في سرده؟ قطعًا لا! إذن هي الذاكرة الفريدة لخالد، التي احتكّت بالكتب في وقت مبكر للغاية، هذا الشيء الذي عبّر عنه ذات يوم مستخدمًا رمزية المكتبة الأثيرة حين قال:

- لست ذكيًا.. أنا مجرد شخص يعرف كيف يستحضر المعلومة في الوقت المناسب.. أعتبر نفسي أمين مكتبة عقلية يجيد عمله لا أكثر١٢

الحقُ أن باب «أحمد خالد توفيق» الأول للقارئ لم يكن إلا سلسلة «وثائقية» بكفاءة وهي ما وراء الطبيعة، إذ تتناول في كل عدد أسطورة ما من بلد مختلف، ورغم إبراز الدكتور للجانب المخيف، في الجملة الدعائية على الغلاف الخلفي للكتيبات «روايات تحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة»، نظرًا لأن القصص تنتمي لأدب الرعب بالضرورة، لكن السلسلة لم تقتصر على هذا، سواءً هي أو ما تبعها من سلاسل.

ثمة إجماع أن كل قارئ للدكتور وكتبه سيحظى بكمية رهيبة من المعرفة، الميزة التي لم يعرفها كثيرًا أدبنا العربي بعكس الأعمال الغربية الغاصّة بالثقافة مثل كتابات دان براون، هكذا نتحدث عن أول ميزة «خالدية» فريدة وهي الموسوعية الخلّاقة، لكنه زاد عليها حميمية الطرح وسلاسته، فلم يلجأ إلى الهوامش إلا في حالات شديدة الندرة، وإنما يمزج المعلومة في نسيج القصة دون الترهل في النص، ومع الوقت صار يجعل معلوماته أكثر توثيقًا بكتابة الكلمات بلغتها الأصلية، وذِكر المراجع في نهاية الكتاب، وعن هذا ينوه في سلسلته فانتازيا:

ملحوظة مهمة: أكثر المصطلحات والأسماء الغريبة الواردة هنا قمت بكتابتها بالإنجليزية، والسبب ليس التحذلق ولكن لأن بعض الأصدقاء طالبوني بهذا مرارًا؛ ليسهل

عليهم معرفة الهجاء الصحيح، فالبحث عن المزيد من التفاصيل في الإنترنت إذا أرادوا.. هذا مطلب عادل ومهم.. وسوف أحاول الالتزام به في كل ما أكتبه فيما بعد إن شاء الله(٢٢)

يضيف في قول آخر: **"أحرص دائمًا على تأكيد المعلومة قبل كتابتها متأثرًا بمايكل كرايتون وصنع الله إبراهيم"١٣**، بل ويقولها صراحة في أحد أعداده:

- الأمر ببساطة هو أنني أحاول أن أكون مُسليًا بأقل قدر من الابتذال وأكبر قدر من الإفادة، وإن أكبر آمالي لهو أن تُغلِق الكتيب بعد الانتهاء منه وتغمغم: لا بأس به أبدًا! وأن تترسب في ذهنك معلومة عن مرض «أديسون» أو جغرافية جزر (الكاريبي) أو فن التحنيط الفرعوني١٤.

لهذا ترتفع النغمة التوثيقية في الكتب، وهو يقر بجانبها السلبي نوعًا:

- تجد كمًا هائلا من المعلومات في قصصي لأجمع بين الخيال والمعلومة .. هذا يبتعد خطوة عن الأدب لكنه يريحني شخصيًا.

****

هنا نُقطة مهمة عن موسوعية كتابات الدكتور، فهو أيضًا لا يقلل من أهمية الثقافة بمعناها الحقيقي، بعيدًا عن الحفظ والتلقين:

- ليس مما يفيد الإنسان المعاصر أن يعرف طول نهر المسيسبي ما دامت هذه المعلومات موجودة في أي دائرة معارف.. إنها ثقافة الكلمات المتقاطعة التي يصرون على أنها الثقافة ولا شيء سواها، بينما الثقافة هي أن تستخدم ما تعرف في تكوين مفهوم متكامل للعالم من حولك وكيفية التعامل معه٢٣

إذن هو يطرح معارفه في الكتب لتكوين المفهوم الثقافي الحقيقي وليس للحشر والدس، فحتى عندما ابتكر شخصية عبير في سلسلته فانتازيا، لم يكف عن وصفها بعديمة الثقافة، رغم كونها تدمن القراءة كدودة كتب نشطة، وتختزن معلومات عديدة عن كل شيء تقريبًا،

بل وحين استنكر أحدهم رأي الدكتور في بطلته، رد الرجل ببساطة٢٥

- كررت مرارًا في فانتازيا أن (عبير) قرأت الكثير جدًا لكنها لم تهضم شيئًا ولم تكون فلسفة واضحة تجاه حياتها .. هذا النمط شائع جدًا ... الثقافة تختلف عن البراعة في حل الكلمات المتقاطعة.

****

لنترك الدكتور ونعد الآن إلى خالد الصغير المسحور بمكتبته وعالمه المشوق، والسؤال الأهم يحضرنا الآن جميعًا بلا شك، ما هو أول كتاب يقرؤه صاحبنا أو يحاول على الأقل فك طلاسمه؟ يخبرنا أن كنزه الأول تمثل في أحد مؤلفات محمود عوض بعنوان «سياحة غرامية»، يحكي فيه الصحفي الشهير عن رحلاته.١٧

المؤلفات الأخرى التي وقعت في يده وسحرته لم تكن كتبًا، بل هي المجلات المصورة أو الكوميكس، فقد كانت أول ما عشقه من كتب مع استطاعته القراءة؛ بطبيعة الحال، فهي مبهرة للأطفال بشكل عام بما فيها من رسومات براقة ومغامرات شيقة، والبداية من المطبوعات الأمريكية، خاصة مجلة ميكي وأبطالها المحبوبين، بطوط وعم دهب وزيزي وغيرهم، خاصة بطوط الذي وقع خالد في غرامه، وكتب عنه كتابًا كاملًا بعنوان «اقتلوا بطوط» فهو يرى أن ديزني «**أخطبوط لا يمكنك الإفلات من ممصاته أبدًا**»٢٧ وعالمه من البط والحيوانات المتكلمة ليس إلا «**تدفق فني جميل بريشة أعظم فناني العصر**»٢٦

تكرر الأمر مع كوميكس الأبطال الخارقين الأمريكيين، سوبر مان وبات مان وبقية شلة الجبابرة، نعم قرأهم خالد وتأثر بهم، لكنه لم يكن مولعًا جدًا بهؤلاء المقنّعين الـ«**ضخام كالثيران والمكتنزن بالعضلات**»٢٨ خاصة مع كل الثغرات في قصصهم، واعتمادها على العُنف والقدرات الرهيبة بلا فن حقيقي، لكنه ظل يطالع هذه القصص حتى أوقفها وزير الثقافة بعدما تصفح مجلة يُلقّن فيها سوبر مان والديه درسًا قاسيًا، ما شكّل صدمة كبيرة لصاحبنا٢٧.

لكن ماذا عن الكتب الأخرى التي تخص عالمه الروائي؟ ما هو أول كتاب منها يقع في يده؟ ربما يكون رواية روسية أو نقدًا سينمائيًا! لماذا روسية؟ سيأتي وقت هذا في فصل «روسي»

كامل، أما لماذا نقد سينمائي، فالحقيقة أن الأب المتفاني لم يمنح ابنه الورق فقط، بل أهداه سحرًا آخر كان أشد وطأة، ولعله أول ما قاده إلى فكرة التأليف وخلق عوالمه الخاصة.

الفصل الثاني

هو يحب السيما والسجق(1)

يبدو أن الطريق كان ممهدًا أمامي لأصير مخرجًا أو مصورًا أو عامل عرض أو حتى بلاسير(2) أو بائع كازوزة في سينما..

لكني صرت طبيبًا في ظروف مجهولة

أحمد خالد توفيق، أفلام الحافظة الزرقاء

كان يعشق كل شيء فيها، ولطالما كتب سطورًا دسمة في مدح تفاصيلها والإشادة بسحرها، بل وصرّح مرارًا أنها مُلهمته الأهم.

- كنت طيلة حياتي أعشق السينما وأراها الشكل النهائي الأسمى للفنون .. ربما كتبت ورسمت لأنني لا أملك كاميرا سينمائية.١١

تنحفر التفاصيل السينمائية في قلب صاحبنا، كهدير آلة العرض، الخدوش على البكرة، مقاعد المتفرجين في الترسو (الدرجة الثالثة)، وكيف لا يتسلل حب السينما إلى قلبه بعدما كان إعلان الفيلم الجديد يُلصق كل اثنين على الجدار المقابل لبيته؟١

البداية كانت من الأب أيضًا، يصطحب ولده كل ثلاثاء إلى «سيما» أوبرا وأمير وريفولي والجمهورية ومصر وجندولا، بعد شراء شطائر السجق الشهية من مطعم عواد، مرة أخرى نكتشف أن «خالد» الصغير كان في بيئة خصبة جدًا للإبداع، كتب وسينما وسجق! فكان عقله كالإسفنجة الجديدة عالية الجودة، تتشرب بنهم كل الجماليات والمباهج حولها، وحتى فنون المذاق لم تكن استثناء!

****

هنا تفصيلة لطيفة عن خالدنا الأكول، الذي لم يخفِ يومًا ولعه بأطايب الطعام، وحتى في أدبه ظل متفننا في وصف جماليات الزاد من دبابيس الدجاج إلى الشاي بالنعناع وعصير القصب، بل وربط جمال فتاة حسناء في إحدى قصصه بالكفتة المشوية!٦ وقال في رواية أخرى «**لست من البلهاء الذين يفقدون شهيتهم حين تسوء الأمور، فما ذنب المعدة في كل هذا؟**»٧ ثم المقولة الأخرى الأكثر تعبيرًا «**ليذهب (الكوليسترول) إلى الجحيم، هو ونصائح د. (عزام) أخصائي أمراض القلب الذي يعالجني.. ولئن قتلتني الذبحة الصدرية فلاذهبن إلى القبر حاملًا بطة في شراييني التاجية**»١٢

أما خالد الصغير، فقد كان ينتظر عيد الأضحى كل عام لينعم بصديقه الخروف لفترة وجيزة٩، ثم لا يحزن عليه كثيرًا بعد النحر، إذ يترك له كنزًا لذيذًا وفيرًا في الثلاجة، لا تشكو معدته الجديدة من عسر هضم مهما أكل، ويحزن بشدة إذا انتهى اللحم فجأة، وربما لهذا كان طفلًا بدينًا باعترافه، ظنه كمساري الأتوبيس في مرة بالغًا وأصرّ أن يدفع تذكرة كاملة بدلًا من النصف تذكرة للصغار٨، وفي قوله الصريح عن الشهية الجامحة يؤكد «**أنا مؤمن بالمثل القائل كل لتعيش ولا تعش لتأكل، لكن ما ذنبي إذا كنت أحتاج إلى طبقين من الأرز وخمسة أرغفة لأظل حيًا؟**» ولنختم بمقولة أخرى لافتة: «**كنت منتشيًا روحيًا وأكلت كمية طعام لا تكفي لصرصور متخم.. أعتقد بالفعل أن تجويف المعدة وتجويف القلب مندمجان**»

****

اندمج حب الطعام مع الأفلام إذن في طفولة خالد، وقد ظل الأب يحدّثه عن سينما شبابه ونجومها في الثلاثينيات والأربعينيات، إيرول فلين وجيمس كانجي١٠، الذين لم يحبهم خالد برغم انتمائهم لِما يُسمى «الحقبة الذهبية لهوليوود» وظل يعتقد أن هذه الفترة هي الافتعال والتخشب الفني بعينه١٣، وأتبع الأب كلامه عن السينما بالفعل، فاعتاد زيارة دور العرض مع الأسرة كلها في البداية، ثم اقتصر على الابن الوحيد ضغطًا للنفقات وتوقًا لحرية الحركة.

لنتخيل مرة أخرى الأب الوقور المتأنق ممسكًا يد صغيره يترجلان في شارع البحر الطنطاوي الواسع، بما فيه من أشجار الرنف الملكي أو البونسيانا، تلك التحفة الربانية السامقة بأزهارها الحمراء الزاهية، وعند تقاطع شارعي الحلو وحسن رضوان تستقر سينما

ندخل دار العرض التي مثلت لـ«خالد» الطفل عالمه الخيالي حرفيًا، كيف لا وهو يحملق بولع إلى الشاشة الكبيرة حيث تتلاحق الأحلام، يبالغ خالدنا فيحسب أن أبطال الأفلام يتجمعون في السينما المغلقة بعد انتهاء العرض، طرزان وجيمس بوند وشيرلوك هولمز، كلهم يجلسون مع عمال السينما فيأكلون ويمرحون، ولعل هذه كانت أول بذرة لعالم «فانتازيا» الخيالي الذي ستذهب إليه بطلته عبير فيما بعد في سلسلة كاملة، إنها فكرة مغرية حقًا.. عالم يتواجد فيه كل أبطال الخيال من كل الألوان والكتابات!

الانطلاقة كانت من السينما الحربية التي عشقها أبوه للغاية، ومن معركة نورماندي التي ذكرها مرارًا، إلى نهاية هتلر ونسف الجسور، عالم من الدبابات والصلبان المعقوفة وحصار ستالينجراد، حتى ظن الصغير أن السينما تقتصر على النازيين فقط، بل إنه تأثر بهم وراح يمشي مشيتهم ويصرخ بكلماتهم، مما أجبر الأب على تغيير هذه النوعية، بتدخل من الأم التي خشيت أن يصدح ابنها بنشيد الرايخ الثالث عما قريب.

هنا نتذكر مجددًا أدب الأب الجم وشخصيته المحترمة، ذاك المدير الذي انتقد ابنه حين لفظ أمامه ذات مرة كلمة «سكّة»، زجره قائلًا إن بيته محترم وعليه أن يخرج منه إذا أحبّ قول هذه الكلمات! فكان من الطبيعي أن يرفض الأب عددًا كبيرًا من الأفلام باعتبارها متدنية الأخلاق أو «أبيحة» بحد تعبيره، كما استسخف أفلام طرزان ببطلها المتأرجح بين الأشجار مع القرود، فضلًا عن أفلام القرد الأكبر على الإطلاق كينج كونج.

هكذا تتغير الدفة السينمائية، ويبدأ الوله الجديد في حياة «خالد» الذي سيجد نفسه فيه حتى آخر عمره، لقد قرر الأب أن يغير نوعية الأفلام من الحربية إلى.. الخوف.. الفزع.. الرعب! صحيح، كان الفيلم يحكي عن «دراكيولا» الرهيب طويل الأنياب شرّه الشهية، وطبعًا يطارد الحسناء المذعورة ليمتص دماءها.

يقول «خالد» أن الفيلم كان من بطولة الممثل الإنجليزي السير كريستوفر لي، الذي جسّد شخصية الكونت مصاص الدماء بالفعل في ٩ أفلام بين ١٩٥٨ و١٩٧٤، ما يعني أن حوالي ربع قرن فصل بين مشاهدة الفيلم وخروج أول أعداد سلسلة «ما وراء الطبيعة» بعنوان «أسطورة مصاص الدماء» في ١٩٩٣، والعجيب أن مشوار خالد الأدبي نفسه سيستمر لربع قرن كذلك.

نعود إلى دماء خالد الطفل، ولا نستغرب تجمدها من الخوف في تلك الليلة الستينية، ليهرع إلى أبيه ملتصقًا به في فراشه، ملتمسًا الأمان شاعرًا بالرهبة اللذيذة! فعلًا فقد كان راغبًا في المزيد رغم كل شيء، وهذا ما دفع والده لإغراقه بالمزيد من أفلام دراكيولا وفرانكنشتاين والزومبي، ولم يكذّب الطفل المتحمس خبرًا وتحول من «نازيته» السابقة إلى «مسخيته» الجديدة، فراح يتصرف كالمسوخ وحاول امتصاص دماء أخته وغرس عصا المكنسة في صدر ابن خالته على سبيل الوتد المرتجل، وفيما بعد في شبابه ستشهد صورة شهيرة على تقمصه لدور دراكيولا ليمتص دماء صديقه!

يحكي لنا الدكتور أيضًا عن واقعة «النائمون» السينمائية الغريبة في سن العاشرة٣، حين وجد بضعة كادرات «سليولويد» لأحد الأفلام جوار السينما، وحاول فحصها بالعدسة في بيته شاهقًا من الانبهار، ليجد كادرًا لرجل إفريقي يرتدي جلد نمر وخلفه عدة مشاعل والترجمة تقول: النائمون؟ عملية سهلة!

طبعًا راح الطفل الحالِم يتخيل كل السيناريوهات الممكنة لتلك اللقطة، من عوالِم العصابات إلى الصراع العرقي، فهذا الإفريقي يريد تصفية «النائمين البيض» في معسكرهم حتمًا! لكنه لم يرض عن كل تصوراته وراح يسأل رفاقه عن أي فيلم يحكي عن إفريقي ونائمين! للأسف لم يُحل هذا اللغز قط.

الخلاصة أن خالد شبّ سينمائيًا بكفاءة، يُقدّر المشهد والحكاية والقصة، لقد وصف فن السينما -مُحقًا- بأنه مجموع كل الفنون البشرية في توليفة ساحرة واحدة، الموسيقا والقصة والتمثيل والرسم والتصوير وخلافه، غير أنه حين تكلم عن الألعاب الإلكترونية في عدد من سلسلة فانتازيا بعنوان «في جحيم الألعاب» ذكر أنها فاقت السينما لأنها تجعل اللاعب يتحكم بالبطل أيضًا في فيلمه!

يقول لصديقه فيما بعد:

- الفيلم ليس مجرد سرد قصة، وإنما البراعة في التصوير والمونتاج والإخراج، هي التي تجعله فيلما مميزًا، والممثل ليس هو المهم، وإنما المخرج١٣

****

في قصصه طلّت السينما كثيرًا، فنجدها في حلقتي رعب ضمن سلسلة ما وراء الطبيعة، وراء الباب المغلق والمتحف الأسود، وأيضًا في «أسطورة الجاثوم» أحد أشهر أعماله وأفضلها، فضلًا عن سلسلة طويلة من المقالات السينمائية، منها ما نُشر في مجلة الفن السابع التي كان يديرها الفنان محمود حميدة، أما قصته مع تحويل أعماله للشاشة فيطول شرحها وسيأتي دورها في محله.

لم يفت الدكتور أحمد في ٢٠١٥ أن يهدي كتابه السينمائي الأشهر «أفلام الحافظة الزرقاء» إلى الشخص الذي يستحقه، معترفًا: ولمن أهدي هذا الكتيب إذن غير أبي -يرحمه الله- الذي علمني إدمان القراءة وعلمتني رحلات الثلاثاء معه عشق السينما؟

****

كل هذا جعل من «خالد» كاتبًا بروح مُخرج محنّك، لا يستغني عن التشويق والحبكة، ولا يخجل من كتابة ممتعة مهما كانت جدية وجهامة الموضوع الذي يحكي عنه، فلخّصًا عشقه السينمائي بوصفه:

- الفن الوحيد الذي يمكنه أن يحمل رسالة ثقيلة للناس يستمتعون وهم يتلقونها ... لست أعلن سرًا إذا قلت إنني أحببت الأدب لأنه يقربني من ذلك العالم الساحر. ما دمت لن أقدم فيلمًا سأقدم كلمات٤

أما أقصى ما قاله في هذا المنحى، فهو المقطع التالي:

- إنني أؤمن بأن السينما هي التطور الطبيعي للأدب وأنها ستطرد الكتاب شيئًا فشيئًا ولكن على مدى مائة عام من الآن.. رأي مجنون؟ ربما .. لكني أستند فيه إلى آراء عدد لا بأس به من النقاد .. فالسينما هي التزاوج بين الموسيقا والتصوير والمسرح والشعر والرقص.. إنها الزواج النهائي بين الفنون جميعًا وبشكل يرغمك على أن تغوص فيه. أليس ظلام قاعة السينما هو ظلام الرحم؟ أليست الصور على الشاشة هي الحلم ذاته؟ من ينكر المستوى الشامخ لأفلام مثل (سفر الرؤيا الآن) و(الأب الروحي) و(فورست جامب)؟

هل من كلمات تصف مشهد سقوط الريشة على المدينة الغافلة في الفيلم الأخير؟٥

في النهاية، لم يكن الأب وحده بالتأكيد هو السند والرفيق لخالد في الفن والخيال، فعالم الدراسة الرحب كان بانتظاره بكل ما فيه من مذاكرة وأبلة وعصا وتختة وتنمر وكل ما تتخيله، لكنه أيضًا أهداه أول صديق في عمره، لكن قبل أن نزور المدرسة، لنذهب مع الطفل أحمد قليلًا إلى المرحلة السابقة لها.. الحضانة، ولنتساءل عن طبع كاتب الرعب المستقبلي، كيف بدأ رعبه، وهل كان مُرعبًا هو الآخر بشكل ما؟

الفصل الثالث

عبد الناصر يريد دمًا من بطني!

الرعب جذاب للجميع. لكن أكرر أنني كنت طفلًا واسع الخيال يخاف من أشياء كثيرة

هناك لذة ماسوشية أكيدة في إخافة النفس

أحمد خالد توفيق١٠

بلا شك، كان للأوضاع الحياتية المخيفة دور كبير في صناعة «خالد» كاتب الرعب المستقبلي الناجح، فبينما يُفضّل البعض الاكتفاء بمواجهة مخاوف الواقع أو حتى تجاهلها، يحوّلها الفنان إلى وقود إبداعي طويل المدى، كلٌ على طريقته وصنعته، فالأديب يوسف القعيد مثلًا يصنع من حرب أكتوبر ملحمة واقعية في روايته «الحرب في بر مصر»، أما أحمد خالد توفيق فيخزّن مخاوفه الشبيهة لاستغلالها فيما بعد، صحيح.. الصهاينة كان لهم دور في مخاوف صاحبنا المُبكّرة، وتكوين خلايا قلبه وعقله القلقة، الحساسة للإبداع في أدب الرعب.

هذا ما تثبته واقعة أخرى لا تُنسى في عمره، مرتبطة فعلًا بالصراع العربي الإسرائيلي، حادثة مرعبة في المجمل، لعلها ساهمت في تزكية نيران خياله الخوّاف وعقدته الوليدة، ليصبح فيما بعد كاتب الرعب الذي يحاول إخافة الآخرين، وبالتالي من الصعب أن تخيفه الدنيا١٧

تبدأ القصة في زمن مبكر للغاية، فرغم أن خالدنا الآن مجرد طفل غرير في حضانة «حماية الأسرة» الطنطاوية بعمرٍ لم يتجاوز السنوات الخمس بعد، إلا أن نهارًا مرعبًا فاجأه في شهر يونيو المخيف بمجمله في العام الحزين ١٩٦٧.

جزّه البواب النوبي «أبو اليزيد» مع خمسة أطفال آخرين إلى غرفته تحت سلم الحضانة،

تتساءل عيون الأطفال في دهشة مذعورة عن هذا الإجراء المباغت والانسحاب التكتيكي المتقهقر، ليجيب الرجل الطيب سؤالهم الصامت بآخر ما يتوقعه أي إنسان في العالم، لم تخفف لهجته النوبية الطريفة من الصدمة:

- إنتي تقعدي ساكتة لاهسن عبد الناصر ياخد دم من بطنك.

دم؟ من بطوننا نحن الأطفال؟ ومن الذي سيفعل هذا؟ عبد الناصر حبيب الملايين زعيم الأمة؟ طبعًا كانت إشاعة من أسوأ وأفجع ما يمكن، جعلت النساء يصرخن في الشوارع متخبطاتٍ لاهثات ليلحقن بأولادهن قبل عبد الناصر الذي فقد صوابه إثر النكسة، فأرسل رجاله لسحب الدم من بطون الأطفال حتى يوفر مخزونًا لصالح المجهود الحربي!

الكثيرون صدّقوا الإشاعة من فرط صدمة الهزيمة في ذاك الصيف الكئيب، لم يدققوا في لا منطقية الأمر وعبثيته البازغة، فالدم لا يؤخذ من البطون وحتى إن صحّ ذلك فليس الأطفال هم الهدف الأفضل للدم! هكذا هي الإشاعات الاحترافية، تصدمك بأقسى وأقصى ما يمكن، دم من الأطفال؟! بشاعة لم تجد من الناس إلا الهلع، ولم تكن والدة خالد استثناءً من فخ الكذبة الكبيرة، فوجدها صاحبنا تركض إلى الحضانة في أسوأ حالاتها، لتنقذ حلاوة إنقاذ ابنها للبواب الممتن، وتركض به في الشارع وسط الصارخات الأخريات٨.

هذا التهديد المبكر من الأعداء زار بيته مجددًا مع مأساة بحر البقر عام ١٩٧٠، وربما أخافه لأن:

- أطفال بحر البقر الذين ماتوا بالقنابل كانوا في سني وقتها بالضبط، و كان يمكن أن أكون أنا لو فضّلت الطائرات محافظة الغربية على الشرقية١٥

يتكرر الأمر نفسه مع المذيعة المصرية سلوى حجازي التي قصف الأعداء طائرتها، بينما كان خالد يتابع برنامجها بشغف، كل هذا جعل أمعاءه تتقلص رعبًا حين هدد الصهاينة الشعب المصري كله مع اندلاع حرب أكتوبر١٤، لكن هذا الخوف لم يستمر طويلًا، فقد جاء شرف ٧٣ ليضمد كل الجراح بعد سنوات قلائل، النصر الذي سيعيش أهل طنطا جميعًا تفاصيله المهيبة، حتى أن خالدنا سيدبج كلماتٍ عديدة ليصفه فيما بعد، متذكرًا بطولات الجيش في إسقاط طائرات العدو، وفرحة الأهالي بالجنود الذاهبين إلى الجبهة، وتوقف

اللصوص أنفسهم عن السرقة، كما أخبر مأمور القسم خالد وأباه حين زاروه، ثم كان معرض الغنائم بعد الحرب، الذي شفى غليل أحمد الطفل جريح القلب، المعترف -حين كبر- بأنه فقد بعضًا من إنسانيته بسبب الصهاينة١٥، يفرح عندما يشربون من نفس الكأس التي ذاقها أهله، ويقول لأحد الطيارين الإسرائيليين المقتولين بسلاح سام ٦ المضاد للطائرات:

- باي باي يا «حاييم» أو يا «ليفي» أو يا «أموتاي».. فلتكن ميتتك أبطأ وأبشع من ميتة «سلوى حجازي»١٤

لم تكن قراءات صاحبنا بعيدة عن هذه الزاوية، حتى في سنه الصغيرة بعد، فرغم أن ميكي وسوبر مان بعيدتان عن الصراع في المنطقة غالبًا، إلا أن مجلة سمير عرضت قصص المقاومة الفلسطينية بريشة محمد حجي، وفيها شاهد خالد الإسرائيليين بهيئة غير بشرية، بل أقرب إلى الوطاويط ومصاصي الدماء، لقد رضع كراهية الصهاينة عبر فناني سمير لأنهم كانوا يكرهونها فعلًا١٦ وظل محتفظًا باحترامه للقضية الفلسطينية حتى آخر يوم في عمره، لدرجة رده على قارئ من القدس طلب صداقته:

- أنا صديقك بالفعل يا أستاذ قصي .. دعك من أنك فلسطيني وهذا يعني أنني تحت أمرك وخادمك لو أردت ولي الشرف١٨

****

يعود الخوف بقوة في موقف آخر، حين كان خالد في عمر الثامنة، خلال حفل زفاف حضره مع أسرته في شبين الكوم، وقتها ظل ينتقل بين مجالس الرجال والنساء حتى أصابه الملل الشديد، فخرج من البيت كله كأي طفل شقي يحترم نفسه، عابثًا متسكعًا في أرجاء لا يعرفها.

استمر في لعبه وسط المجهول وراح يركض ويركض والدقائق تمضي، ابتعد كثيرًا حتى أدرك الحقيقة أخيرًا.. إنه التيه الكامل والضياع الشامل!

الرعب والندم، مزيج قاتل أصاب خالد الذي أرهقه البحث، حتى وجد أحدهم يأكل البلح أمام بيته، سأله الصغير مرتعدًا عن بيت أقاربه، فكانت المُنجية.. ضالته هناك في شارع

جانبي، ليصل التائه إلى مستقره حافظًا جميل ذاك الجار للأبد، وحافزًا خبرة أخرى ربما، مرتبطة بالفزع الهائل في تلك السن الصغيرة.١١

****

بالحديث عن الرعب، لا يمكننا أن نغفل الجانب الآخر من حياة خالد، والذي لا يخجل هو نفسه من إعلانه، إنها الطفولة مجددًا في أعقاب ٦٧، وتتبدى فيها زاوية غريبة في حياة صاحبنا.. مُرعبًا لا مرعوبًا هذه المرة، ولا نتفاجأ كثيرًا إذا حكى لنا عن شقاوته وألاعيبه الشيطانية في طفولته هو الآخر رغم ذعره وخوفه! والبداية من المدرسة ومن سباعي.

لم يكن سباعي إلا الفتى الصعيدي ابن بواب العمارة التي يسكنها خالد الطفل ذو الخامسة، وجرت العادة أن يصحب سباعي صديقنا إلى المدرسة كل صباح، يلف التلفيعة الصعيدية متقيًا البرد ويمسك كف الصغير البريئة إلى المحرقة اليومية المستمرة للظهيرة، لكن العفريت الصغير قرر التمرد مبكرًا جدًا على قوانين العالم، فعندما تركه سباعي على الباب مع التوصيات المعتادة، لم يتوجه لفصله وإنما لمكتب المديرة! سيقضي اليوم كله هناك، بل سيقضي الدراسة كلها حتى يصبح مثل الكبار ولا يحتاج للمدرسة، بالفعل وجد الغرفة المهيبة خالية مستعدة لاستقبال طفل شقي، حشر نفسه خلف أحد المقاعد وبدأ مهمته المملة: الانتظار.

مر الوقت وجاء أحد الضيوف ليستلقي على الكرسي -أو ببساطة- مخبأ صاحبنا، المشكلة فقط في مؤخرته العملاقة! لقد ساء الوضع في السجن الضيق أصلًا، هكذا بزغ أحمد دون أدنى حرج من متراسه لينخلع قلب الرجل مبسملًا ومتسائلًا عن العفريت ذي الخامسة الذي لم يقل الكثير، فقط حمل حقيبته مترفعًا وناعيًا الأخلاق، كيف يجرؤ شخص بالغٌ مثله على إزعاج طفل بريء ويجبره على الخروج من المكتب؟!

اتجه إلى فصله حيث الحصة الخامسة تدور، يتيه فرحًا بكل هذا الوقت الضائع منذ الصباح، ومُجيبًا عن ذهول زملائه بكلمة واحدة: سباعي! أين كُنت؟ ماذا حدث؟ تكلم يا أحمد! ومع إرسال شكوى من المدرسة للبيت تكرر الأمر: سباعي! ذاك الشيطان الصعيدي الذي خان الأمانة وأي أمانة؟ ملاك بشري في الخامسة! طبعًا لم يصدق أحدٌ أقسام سباعي المغلظة، وأنه ترك الصغير أمام باب المدرسة.

- سباااعي.

بعد أسبوعين فقط غادرت أسرته البناية كلها إلى الصعيد٩، هل كانت فعلة أحمد هي السبب في رحيل الفتى؟ هو نفسه لا يتيقن من ذلك، وإن ظل الشعور بالذنب مسيطرًا عليه، والرغبة الباقية طوال العمر في الاعتذار للفتى المظلوم الذي نال حقه بالعدالة الإلهية، إذ انكشف الملعوب فيما بعد وتلقى الشيطان الصغير علقة (لها العجب) وصارت مهمة توصيله إلى مسؤولية أخته أو أبيه.

صحيح.. الحياة مرعبة، وصاحبنا كان من الحياة لهذا كان مُرعبًا هو الآخر! يقولها صراحة:

- الأطفال مزعجون بطبعهم وأشرار.. إنهم يتمتعون بالخسة والشراسة كأي سفاح. هناك طباع وقحة لا يمكن أن تجدها إلا لدى قراصنة الكاريبي أو في حانات بيرو أو لدى الأطفال!

نرى نفس الفكرة في قصصه المرعبة مثل «قل لي يا أونكل»٥ و«أنا والعاؤ»٧، حيث الأطفال في خانة المخادعين الأشرار، يختلقون الأكاذيب ويسببون الأذى ويقلبون الطاولة على الأبطال الكبار في القصة ثم على القراء أنفسهم، فهم آخر ما سيفكر فيهم المرء على أنهم الأشرار! فضلًا عن الطفل الذي يرعب الكبار بتحوله من كائن شديد البراءة إلى مسخ رهيب، كما في العددان «أسطورة طفل آخر»٦ وأسطورة رونيل السوداء٢٠، وهي تيمة مشهورة في الكتابة للرعب.

****

إذن فهذا هو أحمد الطفل، مرعوبًا مُرعبًا كان، ممتلئًا بعض الشيء بالطعام والملابس الثقيلة، وكذلك بعشق القراءة والسينما، قلنا للتو إنه بدأ بالذهاب إلى المدرسة، فلندخل معه إليها إذن، ونقابل صديقه المُبهج، الذي يحمل من اسمه نصيبًا.

الفصل الرابع

مدرسة الإصلاح

كُنت في مدرسة مجانية، لكني تعلمت على أيدي أعظم أساتذة على الإطلاق

أحمد خالد توفيق.

نحن الآن في أوائل السبعينيات وخالد الصغير سيذهب إلى المدرسة للمرة الأولى مرتديًا مريولة تيل نادية العتيقة[1]، يحكي لنا عن التجربة المرعبة والخيانة العظمى الأولى من أمه، كيف لا وقد رحلت وتركته في عهدة عاملة مدرسة الإصلاح الابتدائية، لقد أصابه الهلع حتى أنه تصارع معها لينفد بجلده! لكن العاملة أحكمت قبضتها وقادته كالذبيحة إلى الفصول، ثم سألته في خطورة استخباراتية إن كان يريد الطابق العلوي أم السفلي[5]!

أول اختبار عسير في حياته، معضلة اختيار رهيبة لطفل، لا شك أنه شعر بما عاشه بطل فيلم «ماتريكس» حين خيّروه بين الحبة الزرقاء والحمراء، بين اكتشاف السر الرهيب أو البقاء في نعيم الجهل! الإجابة كانت سهلة على كل حال

- السفلي.

لماذا؟ لأنه ليس العلوي! أي شيء ليهرب الطفل المسكين من هذا الكابوس، غير مُدرك أنها إجابة حددت مستقبله كله تقريبًا، خاصة حين جلس جوار صديقه الأول ذي العوينات السميكة والاسم الغريب، أبهج أديب باسيلي، نعم كان مسيحيًا وهو الشيء الذي لم يعرفه خالد إلا بعد وقت طويل[4]!

لم يجد الطفل أي صعوبة أصلًا في تقبل صديقه الجديد المختلف عنه، قائلًا إن الفرق الوحيد ربما أنه يذهب للمسجد يوم الجمعة وصديقه يذهب للكنيسة يوم الأحد! الصديق الآخر أيمن الجندي أكّد الشيء نفسه، واصفًا خالد بـ«صديق المسيحيين» لأنه لم يجد حرجًا

في ذلك طوال عمره، هو التسامح الديني إذن منذ الصغر، دون الانتباه أصلًا لمعنى التسامح الديني أصلًا لأن الطفولة بلا ملة كما يبدوا

نعود إلى أحمد وأبهج، إنهما وللغرابة مشتركان في الاهتمامات كما يشتركان في رنين الاسم على وزن أفعل، وكلاهما سيرتدي العوينات٨، بل ويحكي أبهج أن اللقاء الأول بدأ بالغناء وليس الكلام، كانت أغنية لفرانك سيناترا، غناها أبهج ليتابعه أحمد١١:

Strangers in the night, two lonely people We were strangers in the night Up to the moment when we said our first hello Little did we know

«غرباء في الليل، شخصان وحيدان، كنا غرباء في الليل، حتى تلك اللحظة، حين نطقنا أول مرحبًا لنا، لم نكن نعرف إلا القليل»

من هنا بدأت الصداقة التي امتدت لما يقرب من خمسين عامًا، وكما نرى هي خير بداية لصديقين خجولين منطويين، صنعا لنفسيهما عالمًا خاصًا بعيدًا عن الرفاق الآخرين ضخام الجثة، لا بد أنهما وجدا الكثير من التنمر المحتوم في كل مدرسة، هذا ما حكاه الدكتور بالكثير من الدعابة في مقال رمزي٢، لكننا لا نستطيع الاعتماد عليه كحقيقة في كل تفاصيله لأن نغمة الخيال عالية جدًا فيه، عمومًا هو يخبرنا صراحة في موضع آخر أن أحد الأطفال حاول ضربه في بطنه فكادت يده تنكسر! بسبب الملابس الصوفية السميكة متعددة الطبقات، تلك التي ألبستها الأم لابنها، مع بعض ورق الجرائد؛ تفاديًا للبرد٣.

على كل حال وجد خالد صديقه المقرب ورفيق شغفه، كان حظه سخيًا بلا شك، إذ اشترك الرفيقان في الاهتمامات كالقراءة والرسم والاستماع للأغاني الأجنبية، وتبادلا الزيارات بمناسبة وغير مناسبة، خاصة مع انبهار أبهج بمكتبة صديقه وقضائه لساعات يقرأ كتبها طالبًا من خالد الصمت التام، أما في الأعياد فالهدايا أيضًا كانت متبادلة، خالد يشتري بطاقة عليها صورة المسيح وأبهج يشتري أخرى تلائم عيد الفطر.

لم تمنعهما القراءة من مغامرات طفلين واسعي الخيال مثلهما، أغربها قطف النباتات العجيبة من فناء المدرسة وغليها ليصنعا مشروب الإخفاء أو الطيران، إنها الطفولة بكل ما

فيها من زهوة وسعادة، حيث الأيام ممتدة بلا نهاية، واللذات بكرية لا تلوثها أي مشاكل ناضجة سخيفة، تشهد على هذا شوارع طنطا التي ذرعها الصغيران بالدراجة، يصاحبهما صوت دميس روسوس الرفيع مغنيًا من الكاسيت المُعلّق على المقود «من ذكرى لذكرى أعيش»٤

****

هذا عن صديق الدراسة، فماذا عن المدرسين أنفسهم؟ إنه حظ آخر حسن طرأ على حياة خالدنا، فهو لم يكف لحظة عن الاعتزاز بنشأته في مدرسة الإصلاح الشهيرة، مُرجّحًا أنها كانت الأفضل على مستوى طنطا في وقتها٢، ويقول بكل فخر عن أساتذته:

- لولا أننا كنا مراهقين قليلي الأدب للثمنا أرجل هؤلاء صباحًا ومساء.. وما زلت حتى اليوم وأنا أدنو من الخمسين ألقي بالسيجارة من يدي لو لمحت أحدهم قادمًا من بعيد.

في المدرسة قابل خالد أستاذ اللغة العربية محمد مزروع، الذي لم يكن محترفًا في مهنته فقط، بل وافق أفكار تلميذه الفطرية عن التسامح بين الأديان، وقد زجر طالبًا تحدث عن مسألة صلب المسيح في حضور زملائه، نعم صرخ الأستاذ لينهي الفتنة، مُشددًا على أن هذه الأمور تُطرح في حصة الدين فقط، ويشيد خالد بمعلمه لأنه «**كان من أكثر من عرفت تدينًا، لكنه التدين السمح الذكي الذي يحترم الآخر ولا يسعى في صلف لكسب حقده**». هذا الرأي الذي قاله فيما بعد بنفسه: «**فهمي للإسلام هو أنك لا ترفض أي إنسان بسبب دينه ما لم يحاربك صراحة أو يهدد الإسلام أو يسيء إليه**»١٣.

تكرر نفس الامتنان نحو أساتذة اللغة الأجنبية، أحدهم كان «يستطعم» العبارات الإنجليزية ليتأكد من موسيقيتها، والآخر يذكر عدة مرادفات لنفس الكلمة، كلها عوامل مساعدة لشغف خالد باللغات، أما مدرس الرسم فسمح له بوضع لمسة أو اثنتين على لوحة جدارية في المدرسة، تشجيعًا لموهبته الوليدة٢، ولم يختلف الأمر مع مدرسي الأحياء والرياضيات، كان راضيًا عن جميعهم، مع أنه أشار لخوفه منهم في إحدى القصص على لسان بطله (ما كان ليترك زاوية مرعبة كهذه تهرب منه!)

- الرعب يبدأ معنا منذ ميلادنا.. هل تذكر جولة المعلم بين الصفوف في المدرسة

الابتدائية ليختار طلبة عشوائيين، يسألهم سؤالًا عسيرًا؟ العصا في يده.. وخطواته تدنو منك.. وأنت تحاول ألا تنظر نحوه حتى لا يراك.. إنه يدنو.. قلبك يوشك على التوقف.. وفجأة تشعر بيده الغليظة على كتفك.. وصوته الصارم يقول: والآن لنر ما سيجيب به هذا الحمار!!١٠

****

كان لأبلة الحضانة «منيرة العدوي» وضع خاص في حياة صاحبنا، فهو يشهد لها بتعليمه كل شيء منذ كان العقل صفرًا، فنقشت عليه القراءة والحساب والرسم، وحكت له قصة شهيرة انحفرت في عقله، عن الفأر الذي قطع القط ذيله.. القط يريد لبنًا ليعيد الذيل. اللبن عند البقرة.. البقرة تريد برسيمًا.. البرسيم عند الفلاح.. الفلاح يريد خبزًا!١٢.

ثبتت هذه القصة في ذهن خالد كعادة ذكرياته الهامة، وليس من دليل أبلغ على امتنانه لأستاذة منيرة من زيارته لها في عمر ٥٣ سنة، رفقة الصديق أبهج أديب٩

****

موقف فريد لا يُنسى لصديق خالد الأول، فقد كان أريبًا للغاية، مشاكسًا صغيرًا يراقب كل شيء بعيون واسعة تلمع، ويحكي خالد عن رد فعله تجاه معلمة جديدة جاءت للمدرسة، مغطاة بمساحيق التجميل السبعينية المبهرجة، ماذا قال عنها أبهج؟

- إنها تستعمل ذات نوع طلاء الأظافر الذي تفضله بائعات الهوى!

قالها فصيحة كما هي! بالتأكيد هذا غريب من طفل في السابعة، لكن السبب يفسرّه خالد ببساطة أنهما كانا يقرآن كل ما يجدانه من كتب تقريبًا، لكن أي كتب ستحتوي شيئًا كهذا؟ لنعد إذن إلى الرواية الأولى التي قرأها توفيق وهي غالبًا روسية، أو بمعنى أدق «ديستويفسكية»!

الفصل الخامس

الروس قادمون!(3)

في البدء تقرأ تشيكوف فتتورط وترى الحياة كلها بمنظار تشيكوفي، ثم تقرأ جوركي وتورجنيف وتولستوي ودستويفسكي وبوشكين وجوجول..

هكذا أنت تحتاج لمعجزة كي تفلت

أحمد خالد توفيق.

ما زلنا مع التلميذ خالد في مدرسة الإصلاح الابتدائية، يحلم ويزهو وسط أسرته المحبة وصديقه المقرّب، الهوس الأول في حياته عرفناه منذ رأينا مكتبة أبيه العامرة، وقراءاته المبكرة تركزت في القصص المصورة أو الكوميكس، تلك التي بدأها بميكي ومغامرات الأبطال الخارقين الأمريكيين، ثم أتبعها بمجلة سمير الصادرة عن دار الهلال، وهي المصرية قلبًا وقالبًا، خاصة في عصرها الذهبي بقيادة نتيلة راشد أو ماما لبنى، لقد قضى خالد أوقاتًا دافئة بديعة مع بطلها الذي كان فرنسيًا في البداية واسمه «سبيرو» ثم صار «سمير» العربي جدًا بفضل رسامي المجلة العرب الذين صنعوا روائع لا تُحصى تجمع بين المحلية والعالمية، وليس هذا غريبًا من فنانين بحجم حجازي ومحي الدين اللباد، لدرجة تقديم مسرحيات شكسبير نفسها لقرائهم، لهذا احتفظت ذاكرة صاحبنا بكل ما قرأه في سمير بعد ٣٠ عامًا!١٢

بعد هذا يمتد ولع خالدنا بقوة إلى مجلة تان تان القادمة من بلجيكا، والمترجمة عبر أحد أكبر معاقل الصحافة، مؤسسة الأهرام ذاتها، فكانت غالية الثمن بالنسبة لمجلة أطفال (عشرة قروش) لكنها عظيمة المحتوى الفني والكتابي، ولم يُقصّر الأب في تزويد ابنه بالمجلة كل أسبوع، ما زاد من ولع خالد بها إلى درجة مراسلتها فيما بعد، واعتبارها جزءًا بالغ الأهمية من ذاته، بفنونها البصرية الأقرب إلى السينما من فرط تفاصيل الرسم المُرهقة متناهية الإتقان، وقصصها المحبوكة بسيناريوهات أقرب إلى العالمية١٣ ويشاركه صديقه أبهج الرأي قائلًا:

- ظهرت مجلة تان تان رفيعة المستوى بحق، عيشتنا في عوالم أخرى لم نحلم يومًا أن

نخوض فيها، المجلة كانت في منتهى الدقة يمكنك أن تأخذ منها أية معلومة وأنت مطمئن، بعد ذلك بفترة دخلنا في المرحلة الإعدادية وبدأت اهتماماتنا تكبر معنا١٥

****

هذا بالنسبة للسحر الكوميكسي الأول، ولعله أول ما جذب صاحبنا إلى الرسم أيضًا، لكن من أين بدأ عشق القص والحكي النثري تحديدًا؟ صحيح أن المجلة النثرية «المختار من الريدرز دايجست» وقعت في يد خالد وعشقها هي الأخرى بما فيها من مقالات راقية تُظهر الوجه الجميل لأمريكا١٤، وكان هذا في مرحلة مبكرة جدًا لأنها توقفت عن الصدور بعد ١٩٦٧ كما حكى صاحبنا بنفسه، إلا أنها لم تكن مجلة قصصية بالمعنى الصريح.

أيضًا لم يفلت النقد السينمائي من عيني خالد، وفي المرحلة الابتدائية نفسها قرأ مؤلفات رؤوف توفيق وسامي السلاموني، باعتبارهم كهنة هذا الفن الذي يعشقه، لكن هؤلاء النقّاد على عظمتهم لم يكونوا جسر خالد إلى الأدب بالتأكيد١٦.

لقد بدأ مشوار خالد الأديب غالبًا من الأدب الروسي، الذي صرّح في كل لقاءاته تقريبًا أنه مدين له بكل شيء، لأن هؤلاء العظماء من أمثال تشيكوف ودوستويفسكي وجوجول سحبوه تمامًا إلى عالمهم الثري، حين قرأهم في طبعات دور النشر الروسية نفسها مثل دار مير ورادوغا، بأقلام أعلام الترجمة أبو بكر يوسف وسامي الدروبي١٨، فتعلم منهم العُمق الإنساني والأهم من ذلك، السخرية الممزوجة بالتهكم على المصائب! كما سنعرف لاحقًا، لكن الأهم أن قراءاته الروسية أعطته «**أرضية كافية لكل شيء**» ما شحذ موهبته المبكرة١

ويتردد السؤال طارحًا نفسه: طفلٌ يقرأ أعمال الروس المُعقّدة السميكة في هذه السن الصغيرة؟ من جديد تبزغ عبقرية أحمد كدودة قراءة شرهة، لأن عتاة القُرّاء الكبار قد لا يتحملون رواية بحجم وثِقل «الجريمة والعقاب» التي رجّح خالد نفسه أنها أول ما وقع في يده من روائع روسيا الأدبية٢، إذن كانت البداية من القمة! ويحكي القارئ المبهور عن انزلاقه تمامًا في عقل بطل دوستويفسكي المضطرب نفسيًا.

تلك الرواية المذهلة الضخمة تحكي عن «راسكولينكوف» الشاب المثقف ثائر الأفكار، والراغب في تحقيق العدالة بيده وذلك بالقتل! موضوع شديد الجهامة والتعقيد بالنسبة

لطفل في الابتدائية أو حتى في الإعدادية باختلاف تصريحات الدكتور عن بداية قراءاته الصعبة المبكرة، الفحصلة أنه قرأ عددًا كبيرًا من الأعمال الشبيهة مع صديقه، منها مثلًا ثلاثية نجيب محفوظ في الحادية عشرة٣، وكتاب «عبد الناصر والعالم» لهيكل في الصف الرابع أو الخامس الابتدائي١١، فلا نستغرب تعليق أبهج عن طلاء أظافر العاهرات، خاصة لو قرأ الصديقان روايات ناضجة ثقيلة مثل الأبله والإخوة كارامازوف وتراس بولبا ومياه الربيع وآسيا والمعطف ود.جيفاجو، وغالبًا كانت كلها في سلسلة «كتابي» الرائعة التي أصدرها وحررها المترجم القدير حلمي مراد في الخمسينيات والستينيات.

الروس قادمون فعلًا، لقد غرق خالد في أدبهم حتى أذنيه، ولم يتوقف عن الاستشهاد بهم طوال عمره فيما بعد، كتب عن «دوستويفسكي» عددًا كاملًا من سلسلته فانتازيا وعنونه بكلمة واحد: عبقري! هكذا فقط، نكرة للتعظيم ربما، وهي إحدى طرقه المجددة في التسمية، الشاهد أن العدد كان معزوفة عشق في هذا الأديب الروسي الفريد، نعرف فيه أغلب حبكاته المميزة في قصصه.

****

هذا عن الفصاحة والموهبة المبكرة، أما عن السخرية فالأدب الروسي يعج بها، وفي مقدمة كتاب «القصة القصيرة الروسية الساخرة» الصادر عن وزارة الثقافة السورية نقرأ وصفًا بليغًا للأدب الساخر يقول: السخرية سلاح ذاتي، يستخدمه الفرد للدفاع عن جبهته الداخلية ضد الخواء والجنون المطبق، إذ أن السخرية، رغم هذا الامتلاء الظاهر بالمرح والضحك والبشاشة، إلا أنها تخفي خلفها أنهارًا من الدموع.

بعد الروس، زاره منبع عربي للسخرية في المدرسة الابتدائية ذاتها، حين اكتشف كنزًا مهمًا يُدعى محمد عفيفي، كاتب مصري لم يحصل على الشهرة الكافية بين مواطنيه ربما، لكنه كان شهيرًا جدًا عند صاحبنا.

البداية كانت في مجلة المصور، مطبوعة أخرى لم يتركها أحمد، وقرأ فيها مقالات محمد عفيفي المعنونة «ابتسم من فضلك» لدرجة حفظها تقريبًا، ثم انتقل إلى كتبه الأخرى التي تضم مقالاته وتدويناته القصيرة مثل «ضحكات صارخة» و«قبلات وصفعات»١٧، وكذلك روايته «التفاحة والجمجمة» التي راقت له بشدة واعتبرها من أهم ما قرأ في حياته٢.

كل هذا جعل من محمد عفيفي أحد أساتذة خالد الخالدين في مسيرته، الذين لا يكف عن ذكرهم وترشيح كتبهم للآخرين، وفي أحد أعداد سلسلته فانتازيا باسم «عينان» يستكمل الدكتور فكرة قديمة لمحمد عفيفي، ويستهل الكتاب قائلًا:

- لا يخجل التلميذ من الاعتراف بأنه بدأ من إحدى أفكار أستاذه، خاصة إذا كان الأستاذ في ثقل وعمق وموهبة وتميز محمد عفيفي.

لكن خالدًا لم يأخذ من عفيفي مجرد فكرة، بل اتجاهًا كاملًا في الكتابة الساخرة، دمجًا مع أساليب تشكيوف وجوركي من قبله، لهذا يقول معترفًا:

- لا أحاول أن أضيف السخرية .. هي تأتي وحدها ربما لأنني تتلمذت على كتاب الروس قبل الثورة وعلى (مارك توين) والساخر الأعظم (محمد عفيفي)٥

صحيح.. مارك توين، أديب أمريكي شهير، ورغم اعتراف الدكتور بأنه ليس «**مولعًا بالأدب الامريكي بصفة خاصة؛ فتجربة الإنجليز والفرنسيين والروس أوسع وأكثر ثراءً٥**» لكنه عشق مارك توين، لأنه ساخر جدًا، بل ويعتبره «**أمير الساخرين، وأطول لسان يمكن أن تقابله في نصف الكرة الغربي**»٧

نلاحظ أيضًا أن حبه للساخرين استمر مع قراءته لأحمد رجب، فقد وصف كتبه بـ«صندوق الحلوى» والتي تشمل (صور مقلوبة) و(كلام فارغ) و(الأغاني للأرجباني) و(توته توته) قائلًا إن لم يقرأ هذه الأعمال محظوظ بما ينتظره من روعة، أما خالد نفسه، فقد قرأ كل ما كتبه أحمد رجب، العظيم في نظره٤

وفي إشارات أخرى، يشيد الدكتور بالأديب التركي عزيز نيسن، ناصحًا إحدى القارئات السائلات عن ترشيحات الكتب، بسخرية مماثلة:

- لو كنت تعانين من الثراء الفاحش وتشعرين أن المال لا يجلب السعادة، فإنني أقترح كذلك أن تحلي عن كيسك وتبتاعي مجموعات الأديب التركي الساخر العبقري (عزيز نيسن) من مكتبة مدبولي. لديهم مجموعة هائلة لكن سعر الكتيب الواحد لا يقل عن

أربعين جنيهًا.. وسوف تجدين أنك راغبة في اقتناء عشرة كتيبات٨

كما نرى لم يقتصر خالد على الروس فقط وإن بدأ منهم، فهناك كاتب آخر عبقري أقام في عوالمه كثيرًا وحفظ ملاحظاته عن فن الرواية، إنه بريطاني هذه المرة، يُدعى سومرست موم ويعرفه كل عشاق الأدب العالمي، لأن الرجل ترك ميراثًا أدبيًا غزيرًا وحصل على ثروة من انتشار كتبه، وكان الحصول على أي من أعماله عيدًا صغيرًا لخالد٢، خاصة عمله الأشهر «القمر وستة بنسات» الذي تكثر إشارات خالد إليه باعتباره من أكثر الكتب تأثيرًا في عمره.

****

تلقف خالد السخرية من محمد عفيفي منذ صغره، ومن غيره كما رأينا، ليجعلها سمة أساسية في أقواله وأدبه، فلا يُخفي حسّه الساخر العميق على كل من قرأ كتبه أو شاهد مقابلاته، الحق أنه سخر من كل شيء بادئًا بأحمد خالد توفيق! مقتديًا بالشاعر «ابن لنكك» الذي سخر من الجميع حتى نفسه١٠، فقال خالد بصراحته الصارخة ذات مرة:

- كي تكون كاتبًا ساخرًا يجب أن تملك القدرة على السخرية من نفسك أولًا! .. كل من لا يملكون هذه القدرة سخريتهم سمجة لزجة كريهة٩

وفي هذا الفلك، يقر في التعريف بنفسه:

- لا أعتقد أن هناك كثيرين يريدون معرفة شيء عن المؤلف.. فأنا أعتبر نفسي بلا أي تواضع شخصًا مملًا إلى حد يثير الغيظ.. بالتأكيد لم أشارك في اغتيال (لنكولن) ولم أضع خطة هزيمة المغول في (عين جالوت).. لا أحتفظ بجثة في القبو أحاول تحريكها بالقوى الذهنية ولم ألتهم طفلًا منذ زمن بعيد.. ولطالما تساءلت عن تلك المعجزة التي تجعل إنسانًا ما يشعر بالفخر أو الغرور. ما الذي يعرفه هذا العبقري عن قوانين الميراث الشرعية؟ هل يمكنه أن يعيد دون خطأ واحد تجربة قطرة الزيت لميليكان؟ هل يمكنه أن يركب دائرة كهربية على التوازي؟ كم جزءًا يحفظ من القرآن؟ ما معلوماته عن قيادة الغواصات؟ هل يستطيع إعراب (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)؟ هل يمكنه أن يكسر ثمرة جوز هند بين ساعده وعضده؟ كم من الوقت يمكنه أن يظل تحت الماء؟ الخلاصة أننا محظوظون لأننا لم نمت خجلًا من زمن من فرط جهلنا وضعفنا!٥

من حسن حظنا أن الرجل لم يلتزم بهذا المبدأ حرفيًا، بل كتب لنا الكثير عن حياته التي تستحق الحكي، وعرفنا المنابع الأصلية لموهبته: ثقافة موسوعية مكتبية وعشق مشتعل للسينما وأدب روسي ساخر، لنعد الآن إلى خالد الصفير ونكمل معه الرحلة من حيث تركناه، فالطفل لم يقرأ للروس فقط بل وشاهدهم أيضًا!٦

****

في صباح أحد الأيام بمدرسته -كان وقتها في العاشرة- تفاجأ خالد وأبهج ورفاقهما بطلب هام من المديرة شخصيًا، عليكم أن تستقبلوا وفدًا سوفيتيًا يزور مدينتنا، طبعًا لأنهم وقتها كانوا أصدقاء المصريين الذين يحمون سماءهم من طائرات الفانتوم الإسرائيلية عام ١٩٧٢، وأتى الوفد بالفعل بما فيه من أطفال وعرائس وراقصين و.. وماروشكا.

من هي ماروشكا؟ إنها طفلة سوفيتية قادمة من عوالم جوركي ودوستويفسكي! لكنها لم تلفت خالد من هذه الناحية كما يحكي القصة، بل سحره جمالها الذي لم يتصوره في كائن حي أو ميت بحسب تعبيره، وهنا ننتقل لهذا الجانب الجديد في حياة خالد، عالم ناصع زاهي الألوان ملؤه الزهر والفراشات والضفائر وأغاني عبد الحليم، الأنثى وعشقها يلوحان في الغد للصغير الحساس، حب وراء حب، كأنه مسلسل طويل عذب، لكنه أيضًا يغص بالعذاب! فكيف ستكون حلقته الأولى؟

الفصل السادس

غزال أسمر

حبيبتي.. لو وضعوك في كفة وفتيات العالم في كفة، لرجحت -حسب قوانين نيوتن- كفة فتيات العالم!

أحمد خالد توفيق، قصاصات قابلة للحرق

لم يكن متبلد المشاعر أو باردها قط، فلا تحسبنّ الاقتباس المنشور في الصفحة السابقة ينمّ عن ذلك! فالوقائع والشهادات تثبت العكس تمامًا تمامًا، إنما هي فقط سخريته الشهيرة التي يفاجئ بها قراءه، ولنكن صرحاء: إن قال «**لو وضعوك في كفة وفتيات العالم في كفة، لرجحت كفتك**» فلا جديد! وهذه إحدى نقاط قوة الرجل، كان يكتب ما لا يتوقعه القارئ، ويفاجئه بأغرب النهايات على الإطلاق -كانتصار الشر مثلًا- لكننا سنتوقع حتمًا أن طفلًا انطوائيًا حالمًا مثله كان شديد الهيام سريع الغرام، وهذا ما تثبته حكاياته الشخصية أو الخيالية.

يُجمع الرفاق من أصدقاء الدكتور على رقته ورهافته، هذا في كبره فما بالكم بطفولته؟ إذن من التي خطفت قلب خالد الفرهف الصغير مبكرًا؟ هل هي ماروشكا؟ السوفيتية القادمة من عالم آخر، لا.. فهذه الأخيرة مرقت سريعًا في حياته وإن تركت بصمة ستتبدى فيما بعد، الأغلب أن اللمسة الأولى لقلبه كانت مصرية صميمة.

جذبته بلونها الشرقي المميز، حتى أنه وصفها بالغزال الأسمر وكتب عنها مقالًا كاملًا!، ليسرد علينا في حنين قصة حبه العاصفة في الصف الخامس الابتدائي، كانت في رأيه تشبه ثالوثًا من الحسناوات، درية شرف الدين وسحر رامي وآلي ماكجرو، نحيلة واسعة الابتسامة نضيدة الأسنان، ورغم تدقيقه المعهود في تفاصيل الجمال لكنه يعترف بإهماله لهذه الناحية وقتها، لا يهمه إن كانت جميلة أم لا، فليس للجسد وأفاعيله أي دخلٍ في قصته المبكّرة بالطبع «لتذهب الهرمونات إلى الجحيم».

لم يحك لنا خالد عن اللقاء الأول، لكن صديق عمره يخبرنا برواية رقيقة، عن طفلة منحته منديلًا حين بكى بعد مشاجرة مع رفاقه الخناشير، لم يكتفِ صاحبنا الشاعري بأخذ المنديل الثمين، بل غسله وكواه وعطره، وأعاده إليها في اليوم التالي! الطفل المثقف خلق قصة رومانسية خاصة به، لهذا ظلت طفلة المنديل في قلبه سنوات طويلة، ولعلها غزاله الأسمر نفسه٨

هل اعترف إذن بحبه طوال سنوات الابتدائية التي جمعته بغزاله؟ كما نتوقع من طفل خجول مثله، اكتفى بنظرات عاشقة صامتة، حتى كان اللقاء الأخير بينهما في حوش المدرسة الإعدادية، فقط حيّاها مُخفيًا شوقه بصعوبة، واعدًا نفسه بالعودة إليها بعد سنوات ليقابل أباها، دون أي محاولة لتعقبها أو إشعارها بالحصار، فهي عنده أقدس من هذا، لكن العودة لم تحصل، كأغلب تجارب الحب في حياته، وكعادته يعبّر لنا عن مشاعره بالكثير من السخرية الممزوجة بالمرارة، كأنه قول عبد الحليم الذي كان يسمعه دامغًا في العاشرة «**وتاني، تاني، تاني، هنروح للحيرة تاني ونضيع ونجري ورا الأماني**»١

في مقال آخر٢ يذكر لنا سطرًا واحدًا حزينًا عن حب عابر، قال عنه بحسرة «**هناك فتاة رقيقة حزينة العينين قالت إنها تحبني ثم اختفت للأبد، وقيل إن أهلها هاجروا إلى أستراليا، لكنها بالنسبة لي ضاعت في ذلك العالم الذي لا يعود منه أحد**»

بالطبع استثمر الدكتور فيما بعد خبراته مع حب الصِغَر في العديد من الأعمال، فمثلًا نجده ظاهرًا بقوة في «أسطورة البيت» التي تدور أصلًا عن ذكريات الطفولة، وكيف وقع رفعت إسماعيل الصغير في حب صديقته المسترجلة قليلًا إلهام ثم الطفلة زرقاء العينين مفرطة الرقة شيراز، وكأنه صراع بين ماروشكا والغزال الأسمر!

قصة أخرى عذبة يسترجع فيها ذكريات قلبه الغض في العدد الخاص من سافاري بعنوان P.C.R، إذ يتذكر بطل السلسلة الدكتور علاء عبد العظيم محبوبته الأولى في شوارع شبرا، ويصفها من جديد بالغزال الأسمر، مستغرقًا في الرسم من أجلها ومحاولة قنص قلبها، طبعًا انتهت القصة بخزن مرير هي الأخرى!

نعم كان عاشقًا على الدوام، رقته تحركه نحوهن، يتغزل في وصف كل أنثى في قصصه،

حتى أن أحد القراء تساءل في مرة على شبكة روايات التفاعلية «**لماذا كل امرأة في كتابات أحمد خالد توفيق جميلة؟**»، لم يكذب السؤال وصاحبه، فنادرًا ما ترك الدكتور شقراء أو سمراء أو حمراء الا وكتب في حسنها بطولًا!!

maktabbah.blogspot.com

الغريب أن مشاعره كانت متناقضة تجاه الأنثى بشكل عام، فهو بالتأكيد يقدسها ولكن في الوقت ذاته يكرهها بطريقة ميزوجينية![3]فرغم معيشته مع أخواته الثلاث، كان لا يراهن كذلك، فلا أحد يعتبر أخواته بناتٍ بحسب قوله! لتظل الأنثى عنده كائنًا ديناصوريًا مهيبًا، وفي رسالته فيما بعد لمجلة تان تان سيكتب: المراسلة مع الفتيان فقط![4] لكنه سيغيرها لاحقًا إلى «المراسلة مع الجنسين»[5]، وحتى مدرسته فيما بعد صارت غير مشتركة، ما أبعده أكثر عن الجنس الآخر.

لقد استخدم كلمات صلاح جاهين في مصر حين أراد التعبير عن رأيه في المرأة ككل، تحديدًا هذه الأبيات[6]:

أنا مصر عندي أحب وأجمل الأشياء

باحبها وهي مالكه الأرض شرق وغرب

وباحبها وهي مرمية جريحة حرب

باحبها بعنف وبرقة وعلى استحياء

وأكرهها وألعن أبوها بعشق زي الداء

الخلاصة أن خالدًا اكتشف الأنثى فأبهرته أكثر من الآخرين، ربما أكثر من الطبيعي، وعلى لسان أحد أبطاله، يقول مُعبرًا عن حاله[7]:

- أما مع الفتيات فالأمر يزداد سوءًا، لأنني -ككل الحساسين المتوحدين- أحمل تقديسًا زائدًا للأنثى، من ثم أتصرف معها كأنني وثني يقف أمام صنم، تهيب.. وصمت.

هذا يشبه حال خالد جدًا في تلك الآونة، والسنوات التالية ستحمل له بعض الخبرات الحزينة الأخرى معهن، لقد شبّ رومانسيًا بالمعنى الشعبي، وفي واحدة من خواطره كتب يقول:

- «جلست على طرف الفراش.. وأمسكت بدفاتري، ومضت تطالع كل حرف.. أنجبته مشاعري!». بدأت كتابة هذه القصيدة عام ١٩٧٨.. ما زلت عاجزا عن استكمالها بعد ٣٨ سنة! ليست قصيدة جيدة، لكنها تلتهب بأحاسيس قاتلة. إنها ذكرى (....) الساحرة.

حُب آخر جديد؟ أم لعلها ماروشكا أو الغزال الأسمر أو فتاة أستراليا؟ ربما لن يهمنا كثيرًا، لكننا عرفنا الآن شيئًا مهمًا، بدأ خالد الموهوب بكتابة الشعر أيضًا، فماذا عن علاقة الأب والأم بالشاعر الموهوب؟

الفصل السابع

فقدان وأشعار وصديق

كي أكمل هذه الأغنية

لا يوجد عمر يكفيني

أنواء الليل تحاصرني

وتضيق شراييني

أحمد خالد توفيق، قصيدة «شرايين تاجية» (4)١٩٨٧

لم نعرف الكثير عن بيت خالد بخلاف أبيه ومكتبته، إلا أن بعض إشاراته عن الأم تؤكد حنانها الفياض الغامر عليه، إذن فقد فاز الولد الوحيد الأخير ببعض التدليل الشرعي، لكن مشاعر الأم شملت الجنود على الجبهة المصرية كذلك في حرب رمضان ٧٣.

- أمي تتساءل عن كل هؤلاء الذين يحاربون الآن في الرمال والظلام ولم يظفروا -يا كبدي- بساعة راحة منذ ظهر السبت.. فجأة صارت أمي أمَّ هؤلاء جميعًا!

وقبل الحرب أيضًا، كان الموقف أشدّ وقعًا على الأم الحنون في العام ١٩٧٠، حين سمعت خبر الهجوم الإسرائيلي الوحشي على مدرسة بحر البقر٢

- أمي ترتجف بلا توقف كمن تسري الكهرباء في جسده، ثم دخلت الفراش وأسنانها تصطك وظلت تبكي لساعات كأنني أنا من مات.

في رمضان، كان للأم فضل خاص على أحمد والعائلة، لم تكن ناقمة على انشغال الجميع عنها مثلًا، لأنهم لا يساعدونها في إعداد الإفطار بل..

- كانت تعترف لي كثيرًا أنها تتلذذ جدًا بهذا الشعور: أبناؤها صائمون ونائمون بانتظار المدفع بينما هي تحارب في المطبخ وحدها[10]

ليس هذا فقط، فالأم الباسلة تبيع مقتنياتها الذهبية خلسة، فصطحبة خالد معها إلى محلات الصاغة، وتوصيه بأغلظ الأمر ألا يخبر أباه، كل هذا لفك أزمة زوجها المالية، مدعية أن النقود منسية في الخزانة، وتسأله لتحبك كذبتها البديعة:

- هذا المظروف فيه مال.. وجدته في جيب بدلتك القديمة.. كيف تنسى كل هذا المبلغ؟![15]

هذه هي الأم التي تمثلت في كل والدة طيبة بقصص خالد، ولا شك أنه استوحاها في أحد أشهر اقتباساته، في العدد المميز من سلسلة سافاراي «حكاية ثقب»:

- إن أمي كانت ستنتحر فورًا لو ظل زر قميص أبي ناقصًا لفترة تتجاوز الساعة.. بل ربما انتحرت لو أن أبي طلب الشئ قبل أن تلاحظه هي.

- أبي لم يكن يعرف عدد جواربه أو شكلها، لكن أمي كانت تعرف تاريخ كل جورب.. من أين اشتريناه ومتى رتقته ومتى غسلته!

- أمي لم تكن طبيبة و لم تكن تتحدث اللاتينية و الفرنسية، لكنها عرفت كيف تصنع أسرة سعيدة متماسكة.

- أبي لم يكن طاغية، لكنه لم يكن يطلب الطلب مرتين.

****

للأسف، لن يكون لهذه الأم الرؤوم دور كبير في قصتنا، لأن وحيدها لم يقض معها كثيرًا من الوقت، فقد رحلت مبكرًا رحمها الله في فبراير الحزين ١٩٧٧، بينما آخر عنقودها في الخامسة عشرة[17]، وقال عن هذه الفجيعة في حسرة تهكمية بالغة:

- ماتت أمي وأنا في الصف الثاني الثانوي، شيء قاسٍ لكن له مزية واحدة: لن يتصل بي أحد ليلًا ليقول لي: تعالى إلحق الحاجة.. أو الحاجة تعيش أنت٣

يا للكوميديا السوداء! خالد يعنيها ببساطة، سترحل أمه عاجلًا أو آجلًا، إنها الدنيا التي كتبت علينا آلامًا أبدية لا نستطيع الفرار منها، أبرزها فقدان الأحبة، وهكذا عليه أن يمتن لرحيل أمه المبكر بشكل ما، بالطبع لم يمر الأمر بسهولة على الكاتب والشاعر الصغير

maktabbah.blogspot.com

وكما أسلفنا، اعتاد والده أن يشتري له مجلة تان تان مساء كل سبت، وكان خالد يراسلها بالفعل وتُنشر أعماله فيها١٤ هكذا أرسل لمجلته المُفضَّلة يحكي عن آلامه، ليرد عليه محرر باب «مواهب وهوايات» مهونًا بإيجاز:

«عزيزي أحمد.. إن ما حدث لك قد حدث لي قبلك بشهر واحد. ولذلك تجدني أعرف معنى فقد الأم. رسالتك عبّرت عن مشاعري تمامًا لذلك قرأتها أكثر من مرة. عزائي أنك إنسان ناضج يقدّر مثل هذه المواقف. فتذرع بالإيمان. وليكن لك في والدك خير صديق. نرحب بكل إنتاجك ونأسف لتأخرنا في النشر»

صحيح، لقد تعامل خالد المُراهق بُنضج فنان حقيقي مع فراق أمه، لاجئًا إلى الكتابة والأدب مجددًا كما فعل حين قرر الانتحار، هذه المرة بترجمة أغنية بعنوان «بابا» للمُطرب الكندي بول آنكا، تقول أبياتها وفق ترجمته المُقفّاة٤:

اعتدنا ... من بضع سنين

أن تصحو أمي والفجر

وتصلي لإله النور

تستلهم أنسام الصبر

****

اعتدنا.. من بضع سنين

أن أسند أمي للموقد

وتعد طعام الإفطار

في صبر غض .. لا ينقد

****

اعتدنا .. من بضع سنين

أن أذهب معها لسريري

تكسوني بغطاء دافئ

وتقول: «نم الآن صغيري»

****

اعتدنا .. من بضع سنين

أن نحيا في كون ثان

لم ندرك أنا لن نبقى

نتحدى شر الأيام

****

لم أدرك إذ كنت صغيرًا

كم كانت تتألم مرضًا

لكن أبي كان عليمًا

فالموت حريص لا يرضى

****

وتولت في ليل حالك

أجمل بسمات الأيام

وبكينا.. لكن من يسمع؟

وبقي لي أب يرعاني...

****

اعتدنا من بضع سنين

أن ينهض (بابا) والفجر

يوقظني .. فأهب .. وأهمس

«عاودني كابوس القبر ..»

****

اعتدنا من بضع سنين

أن يطهو (بابا) إفطاري

ويميل علي ويلثمني

ويقول: «كل الخبز صغيري»

****

اعتدنا من بضع سنين

أن يشعل (بابا) غليونه

ويجوب بأنهار الذكرى

بشراع أرخته جفونه

****

في ذات مساء ناداني

فذهبت إليه بحجرته

فوجدت بقايا إنسان

من بعد خطوب سحقته

****

وتنفس من صدر مجهد

بهموم لن تنسى يومًا

قال: «تقدم لا ترهبني

أنت كياني الباقي دومًا»

****

«قد ربيتك منذ شبابك

قد علمتك أن تتحمل

صرت اليوم فتيا حقا

كم يسعدني أن أتأمل»

****

«قد علمتك أن تترفع

أن تتكسب من أعمالك

قد علمتك أن تتعبد

أن تتروى في أفعالك»

****

«أن الدنيا جدب قاحل

ما لم تسرع قد تتعثر..

امض بني..» وصمت قليلًا

ثم أضاف « .. ولا تتأخر ..»

****

اعتدنا من بضع سنين

أن ينهض (بابا) المسكين

ويصلي لإله النور

يستلهم صبرًا ... ويقين

****

هذه نقطة فارقة أخرى في حياة خالدنا، فموت الأمر المبكر أحيا مخاوفه بلا شك، هو ليس إلا طفلًا «خوافًا» في النهاية كما اعترف كثيرًا، فالآن لم يعد مصاصو الدماء مخيفين كما كانوا على شاشة السينما؛ الواقع أكثر رعبًا بما لا يُقاس، والحياة تحتوي على حروب وموت وفراق وفواجع أخرى لا تُحصى، هكذا نفهم خوفه الجديد من فقدان عائلي آخر، وطريقته المبتكرة في التعامل مع مخاطر أيامه:

- في طفولتي كنت أخاف مئات الأشياء أهمها موت أبي، وقد دوّنت هذا كله في ورقة أخفيتها في فجوة في سور المدرسة، شعرتُ براحة وكأنني تخلصت من مخاوفي١٢ .. لكني -حتى اليوم- أشعر بانقباض كلما مررت قرب هذا المكان.. وأشعر أن ملمس هذه الورقة لعين١١ كأن العدوى ستصيبني من جديد إذا لمستها.

إنه يخشى رحيل الأب، ليس لأنه مجرد «والد» تسمّى باسمه، فهو كان صديقه بالفعل كما قال محرر مجلة تان تان، أبٌ شديد الاحترام والوقار وإنفاق المال على الثقافة والكتب، لكنه يسمح لابنه بدخول سيرك سخيف في مولد السيد البدوي، لم يحرمه ودفع مبلغًا فادحًا وقتها -قرشين صاغ- رغم معرفته أن فقرات سيرك «أبو شفة» هذا أقرب إلى النصب، بالإضافة لمقاعد الجلوس الملينة بالبراغيث، لكنه فعل هذا ودفع المال مُرغمًا، فقط لأن ابنه تعلّق بالسيرك.٩

ما فعله أحمد بورقة مخاوفه تصرف منطقي من طفل يحب الكتابة، ويقول الدكتور عن نفسه فيما بعد، إنه كان منهجيًا systematic في التخلص من قلقه١٢، متعاملًا مع الجانب السيئ لسعة خياله، وحساسيته تجاه نوائب الدهر، لكنه اكتفى في البداية بسرد المخاوف وإخفائها، واعتمد على الشعر بدلًا من ذلك.

لنعد إذن إلى تلك أبياته وقوافيه، مترجمة أو مؤلفة، فبخلاف ترجمته للأغنية السالف ذكرها، فقد وُلدت القصيدة الأولى لصاحبنا في الصف الثالث الإعدادي٥، بل ونعرف يقينًا أن مشواره الإبداعي بدأ فعليًا من هنا٧.

هذا ما حدث، استولت القوافي والتفعيلة وتفانين الشعر على الموهوب الصغير قبل النثر، تحديدًا على يد أستاذه الأول، الشاعر كامل الشناوي، والذي استشعر في أبياته الدفقة الشعورية الآسرة، حيث وجدها «**بليغة جدًا ساحرة جدًا، وفيها ذلك الشيء الذي لا يمكن أن يوصف ولا يمكن تسميته. لهذا يختلف الشعر عن الكلام العادي. ليس الاختلاف كامنًا في القافية ولا الإيقاع ولا الخيالات ولا جرس الألفاظ. إنه ذلك الشيء المجهول الذي لا اسم له. قالوا إن الشعر هو ما (أشعر وقشعر)**»٥

يؤكد خالد تأثره بعمالقة النظم من أمثال صلاح عبد الصبور، ثم شعراء الجاهلية مفرطي الفصاحة والضلاعة في اللغة، بل إنه عرج على أشعار الروسي العملاق يفتوشنكو، وقصائد

البولندية فيسوافا شيمبورسكا١٨، لإيمانه بأن هذا الفن ليس مجرد سجع وإيقاع، فالشعر الجيد يبقى رهينًا مؤثرًا حتى بعد ترجمته.

****

في المدرسة الإعدادية التقى خالد بأصدقاء جدد، مهتمين بالفن مثله، منهم الممثل ماجد المصري نفسه١٨، لكن الصديق الأهم كان كاتبًا وشاعرًا هو الآخر، وعن طريق محاولة فنية لافتة، التقى صديق المستقبل، فكما جمعت أغنية فرانك سيناترا بين أحمد وصديقه أبهج من قبل، كانت أغنية شعرية أخرى سبب تلاقي أحمد ورفيقه الجديد أيمن الجندي في الصف الثالث الإعدادي٦، غير أن الأغنية كانت هذه المرة من تأليف الأخير نفسه، تقول أبياتها:

«أشكو إليك مر العذاب وأنت لم لا تجيبى؟

ثم أرجو منك نظرة تطفئ لوعان قلبى ونحيبى»

نشرتها له مجلة صباح الخير، فيقرؤها خالد ويُعجب بها، ويسمع أنها من نظم زميل له في مدرسة سعيد العريان الإعدادية، لأن أيمن أذاع الخبر في كل مكان بحماس المراهقين، هكذا يتجه إليه صديق المستقبل ذو الثالثة عشر عامًا في فناء المدرسة ويسأله:

- «أنت أيمن الجندي الذي نشرت لك مجلة (صباح الخير)؟»

يومئ أيمن بفخر ملوحًا بالمجلة التي لا تفارق يده، فيرد خالد:

- «أصل أنا كمان بكتب شعر».

ومن هنا بدأت الصداقة بين الشاعرين الهاويين لتمتد إلى بقية عمرهما، كلاهما حكى طويلًا عن الولع بتأليف الأبيات ودبجها معًا، بل وارتجالها لحظيًا في نزهاتهما على أطراف طنطا الخضراء في قرية قحافة، حيث منابع الإلهام الذي لن يأتي إلا على شط الترعة بعد شُرب عصير القصب! وفيما بعد أقرّ خالد كثيرًا برداءة أشعاره الأولى رغم ما فيها من عفوية محببة، ويقول حامدًا ربه **«الحمد لله أن هذه الأبيات ضاعت»** فمنها مثلًا هذين البيتين

(أحدهما له والآخر لأيمن):

«لو ترين ما أراه.. من خشوع وجمال

صفحة الماء عليها. روعة تزكي خيالي»

لكن أبياتًا أخرى أبهرت أيمن حين قرأها في دفتر أنيق مليء برسوم خالد، يقول فيها الأخير:

«أبصرتها يوما حسناء منزوية

دخلت علينا خلف الرتاج منطوية

وما انفكت تحدق في دروب ملتوية»

لم يكن هذا وحده إبهار خالد لأصدقائه، فقد تحداه صديق آخر في ترجمة شعرية لقصيدة روسية، وكما رأينا في قصيدة مجلة «تان تان» حدث الشيء نفسه ولكن بالعامية(٧):

(ليل وضباب/ والرصاص لما يدمى السكون/ والرياح واحتضار النجوم/ والأنين والجراح جنبي

(وأنت سهرانة/ جنب سرير ابننا مش بتبكي/ دمعة واحدة فى عينك الحنونة/ بتداريها بعيد عني)

هذه المحاولات لم يتبعها خالد بأخرى على كل حال، حتى مع جودة عدد لا بأس به من قصائده، منها «قد مات صغيرك» أو اسمها الأصلي «شرايين تاجية» والتي شدت بها فرقة «كايروكي» بعد وفاته، كما أن أيمن أخبره بإطراء أستاذ لغة عربية مثقف -صديق أبيه- لأشعاره حين رآها، وكيف انشغل الأستاذ بقصائد خالد الفتقنة مُهملًا قصائد أيمن، وحين عرف صاحبنا بالموقف تأسى لصديقه مُشفقًا عليه متناسيًا المدح الموجه إليه! قائلًا إن ما

لم يكتفِ خالد بكتابة الشعر، بل درس علومه أيضًا، حين وقع في يده كتاب رديء الطباعة يحوي طريقة مُبسطة وسهلة لوزن الأشعار ومعرفة أسرار البحور وخبايا التفعيلات٥، وكانت نتيجة لهذا أن نشرت له مجلة تان تان المزيد من الأشعار، هذه المرة من تأليفه وليس تعريبه، مثل القصيدة المعنونة «آراء متطرفة» ويبدأها هكذا:

قد كنت أجهل ما الذي .. عشنا نسميه القدر

ما كنت أعلم كنهه .. أهو البكاء إذا كثر؟

أهم اليتيم إذا بكى .. أهو التراب إذا انطمر

أهو الفراق إذا أتى .. أهو الشباب إذا ضمر؟

****

وفي قصيدة أخرى للمجلة، عاطفية هذه المرة، بعنوان «قصة حب» ومستوحاة من الفيلم الشهير بنفس الاسم، يقول:

لست أدري كيف أحكي .. ما بقلبي من شطايا

قصة الحب الغنية .. قد تمشت في دمايا

أين بالكلمات تحكي .. أي بَشر أفعمتني؟

قصة الحب البسيطة .. والبريئة احتوتني

****

رغم ذلك كله، قرر خالد اعتزال الشعر ببساطة، ليس لأن والده لامه على الاستغراق في القصائد العاطفية٩، بل حين شعر بتقزم موهبته أمام العملاق أمل دنقل، معترفًا بطريقة أدبية:

- أتقدم لكم بهذه الاستقالة المسببة، أقر فيها أنني قد قررت ألا أكتب الشعر أبدًا إلا في ظروف معينة، كأن يكون هذا الشعر على لسان أحد أبطال قصصي أو يظهر عجزه عن كتابة شعر جيد. سبب هذه الاستقالة لا يعود لسوء معاملة، فأنتم قد أحسنتم استقبالي والاحتفاء بكل ما أكتبه، ولكنه بسبب عثوري على شاعر حقيقي. شاعر يحترق من أجل الكلمة، ويشيخ بضعة أعوام كلما كتب بيتين من الشعر، وهذا الشاعر الذي علمني معنى لفظة شاعر فعلًا، هو (أمل دنقل). لا يمكن أن نطالب الجميع بأن يرسموا مثل بيكار، أو يكتبوا الموسيقا مثل موتسارت، أو يلعبوا الكرة مثل مارادونا.٥

وفي مناسبة أخرى يقول باقتضاب١١:

- الحقيقة أن شعري كان أكثره عاطفيًا لأن هذه هي طبيعة تلك الفترة .. ثم اكتشفت اختراعًا اسمه (أمل دنقل) واختراعًا اسمه (صلاح عبد الصبور)، واختراعًا اسمه (غازي القصيبي)، فكففت عن خداع نفسي.

كان هذا أحد أسباب اعتزال الشاعر الطنطاوي المجتهد -بالإضافة لسبب «عاطفي» آخر سنذكره في وقته- ولم يعد إليه إلا في قصصه كما قال، باعتباره شِعرًا رديئًا يسخر من قائله، وقد فعل خالد هذا، اللهم محاولة أخرى خفية مع انطلاق برنامج «ستار ميكر» للمواهب الغنائية في ٢٠٠٣، حين لم يعجبه تركيب الأشعار على الألحان الأجنبية، فأرسل إليهم يقول إن الكلمات سيئة متكلفة ويمكنه كتابة أفضل منها، لكنه اكتشف أن متلقي الخطابات هو مؤلف الكلمات نفسه!٨

حتى عندما غرض عليه فيما بعد أن ينشر أشعاره الأولى رفض بشدة، معترفًا أنها مجرد بدايات ساذجة أشبه بصورة قديمة للمرء، سيحب الاحتفاظ بها لحميميتها ليس أكثر، لكنها لا تصلح لوضعها بين دفتي كتاب١٣

هكذا انتهت رحلة الشعر بعدما جلبت الصديق الجديد، لتأتي رحلة حتمية في حياة أغلب من قدحوا زناد فكرهم، وتعددت معارفهم وقراءاتهم، إنها بلا شك.. رحلة من الشك للإيمان!

الفصل الثامن

هادم الأساطير

هناك مقولات أؤمن أن قيمتها لا تتجاوز اهتزازات طبلة الأذن لسماعها، ومنها أن الرقابة شريرة على طول الخط..

الرقابة الرشيدة الواعية الأمينة قد تفيد المجتمع فعلًا

أحمد خالد توفيق، مقال: تاريخ للكبار فقط

موقع «بص وطل» - ٢٦ أكتوبر ٢٠١٠

رغم إعجابي الشديد به، شخصية وكتابة، لم يجمعني -أنا كاتب هذه السطور- بأحمد خالد توفيق سوى موقف واحد، عقب إحدى ندواته في معرض الكتاب، غالبًا في العام ٢٠١٢، لحقت به حين تحلق حوله لفيف من قرائه، يناقشونه بعيون لامعة وأنفاس متلاحقة، أتى دوري، فلم أجد إلا سؤالًا واحدًا أتلفظ به، كان لغزًا شغلني، علاقة سرية غامضة عندي، تجمعه بكاتب شهير، كنت -وما زلت- أحب مؤلفاته هو الآخر.

بوقوفي أمامه، راح عقلي يحاول فلترة طوفان الكلمات الذي تفاطر على لساني، فكان استفساري مباشرًا دون حتى أي تحية، من فرط التوتر الشرعي في حضرة كاتبي المفضل

- دكتور.. هل ممكن أن يجتمع مصطفى محمود بوما بعبير؟

عبير كانت بطلة سلسلته الشهيرة فانتازيا، التي قابلت في كتبها دوستويفسكي ولافكرافت وهوميروس وغيرهم من الأدباء والمفكرين، هكذا أحببت أن أراها مع مصطفى محمود، وتخيلتها كنزًا تقابل أبطاله الشعبيين في قصصه الواقعية، أو المستقبليين في قصصه المنتمية للخيال العلمي، كل هذا أنهى الدكتور احتماليته بكلمة واحدة ردًا على

تساؤلي:

- صعب!

قالها بابتسامة تجمع بين استثقال الفكرة وربما السخرية منها، فقد أتبعها بتفسير مقتضب، يوضح فيه أن مصطفى محمود شخصية جدلية، حياتها مليئة بالقضايا الإشكالية، ولن يحب أن يتناولها في قصصه.

شكرته بسرعة متخلصًا من عبء الاتزان في التحدث معه (كنت وقتها خجولًا للغاية!) وربطت بين ما قال وما أعرفه عن تحفظه المُبرر، أي حقيقة تجنّبه لكل ما ينافي طبيعة سلاسله «العائلية» التي فرضها على نفسه، غير أن سببًا خفيًا كان يتوارى في ماضي وعقل أحمد خالد توفيق، يُفسّر هذه الأحجية في تجنّب مصطفى محمود الذي قاربه في الحقبة الزمنية، والبداية من التفكير في الله والإنسان.

فمع كرّ الأعوام، كَبُر خالد الصغير ولم يعد صغيرًا جدًا، وإذا كانت قراءاته المبكرة روسية دوستويفسكية ضمن أعمال عديدة لطيفة مختلفة الأنماط في مكتبة الأب الفتخمة، فبعض الكتب هناك كانت أيضًا «قابلة للاشتعال وتُحفظ عن متناول أيدي الأطفال»، كما حكينا في واقعة ألف ليلة وليلة، فلا نستغرب أن تمتد يده إلى كتاب ملتهب جدًا هو «الله والإنسان» للدكتور المرحوم مصطفى محمود[1]

****

هنا لا بد لنا من العروج على سيرة هذا الأثر الهام لـ«فارس العلم والإيمان» كما يُطلق عليه محبوه، وليس هنا مجال مناقشة شخصية مصطفى محمود وإرثه الكتابي بطبيعة الحال، فقط سنذكر منه ما يتقاطع مع سيرة الدكتور، وهو كتابه الثاني، فباستثناء مجموعة قصصية واحدة بعنوان «أكل عيش»، نشر محمود أول كتبه الفكرية فعليًا عام ١٩٥٦ بعنوان «الله والإنسان»[2]

الحقيقة، أنه من أكثر كتب صاحبه المثيرة للجدل وربما أشدهم، جمع فيه الرجل عددًا من مقالاته التأملية، كما وصفها بنفسه في آخر الكتاب بـ«بحث في معنى الروح وأصل العبادات»

وهو ما يتضح في الفهرس، الذي جاءت عناوين فصوله هكذا: هل أنت حر؟ أين السعادة؟ الله.. المرأة.. وغيرها من الجولات الفلسفية في عقل شخص يدمن التفكير، ويتحسس طريقه دون قناعات مسبقة أو مسلمات محفوظة، حتى أنه بدأ الكتاب بمقولة مستفزة - حتمًا- للكثيرين:

- إن الإيمان ضروري ولكن بأي شيء نؤمن؟

أما في الثنايا فيقولها صريحة: إن الله أقرب إلى الذين يجتهدون في فهمه من الذين يؤمنون به إيمانًا أعمى، ويطلق سؤالًا ديناميتيًا في أحد الفصول: هل كان هناك ضرورة لنزول جبريل على النبي بالرسالة، ولماذا لم يلهمه الله مثلما ألهم بيتهوفن وجوخ وبيكاسو وقيس وعنترة؟٣.

صدر الكتاب عن «دار الجمهورية» الحكومية، بإشراف الراحل محمد أنور السادات (لم يكن رئيسًا بعد بالطبع)، وقراءة مفتي الجمهورية شخصيًا، الذي اعترف بجودة أسلوب محمود لأنه «يُبشر بكاتب كبير وعالِم ومفكر» لكن مقالات الكتاب -التي مدحتها أعلى سلطات الدولة الشرعية- لم تكن سوى قنابل موقوتة انفجرت بعد نشرها، ويصف صاحبها الأمر في مذكراته٢:

- رغم أن الإعلام لم يكن بمثل هذا الحجم (يقصد حجمه في أيامنا الحالية) وكان الاعتماد كله على الصحافة الورقية، فالحياة توقفت في مصر بعد إصدار الكتاب ورواجه، فالناس لم يعتادوا مثل هذه الأفكار، أو على الأقل بمثل طريقتي في طرحها، انقلبت الدنيا من حولي وأصبح كل واحد يكتب عن الموضوع بمزاجه، من وصفني بفيلسوف العصر الحديث، ومن وصفني بالملحد والشيوعي والكافر

- كان رأي السادات والمفتي كاعتراف رسمي من الدولة بهذا الكتاب وقيمته، ولكن قضاة التفتيش الجدد رفضوه، وثاروا وهاجوا وسبوا، وقالوا هذا الكاتب أصابه الجنون أو كَفَر، وقدموا مجموعة الشكاوى ضدي للقضاء، وصودرت النسخ المعدودة المتبقية من الكتاب في الأسواق.

يسترسل مصطفى محمود في وصف صعوبة موقفه، ودخوله لساحات القضاء بعد وصول

قضيته لأمن الدولة، وكيف ظلت هناك شهورًا، واستغرقت مرافعات عديدة، تضمنتها شائعات كثيرة عن إعدام المؤلف لارتداده عن الدين، حتى صدر الحكم أخيرًا بمصادرة الكتاب دون حيثيات، وبأمر الرئيس جمال عبد الناصر، الذي منع مصطفى محمود لاحقًا من الكتابة، وفق مذكراته التي يختم فيها حديثه عن القضية بقوله:

- حين راجعت كتابي وجدته مليئًا بالثغرات التي عدلت عنها وصححتها في كتب أخرى.. وأنا هنا أعلن لأول مرة أنني تراجعت عن كل الأفكار المادية التي لا ترتبط بالدين والتي جاءت بكتاب «الله والإنسان»٢

****

هذه باختصار، قصة الكتاب الأشهر لمصطفى محمود، والذي وقع في يد خالدنا اليافع، بكل مقالاته الفكرية المتفجرة، بل والدامية لخلايا تفكير مُراهق غض غرير، والذي يؤمن أن **«بعض الكتب ما كان يجب أن يصل ليد صغير، بعضها خطر فعلًا»١٢**

يحكي لنا الصديق أيمن الجندي الوقعة كأنه يصرخ: تخيل أن مراهقًا في طور التكوين لا يعرف شيئًا بعد ولا يستطيع أن يزن المعلومة من حيث ثقلها أو خفتها.. يُفاجأ بكتاب يشككه في إيمانه بخالقه العظيم؟١

صحيح، لقد انتقلت عدوى الشك إلى أحمد، وغالبًا قضى ساعات طويلة مريرة، كثيرة ومؤذية١، هذا الفتى الذي اعتبر نفسه «أمين مكتبة عقلية» يحتفظ بالكثير من المعلومات من قراءاته٤، لكنه لم يكن يعدم التفكير والتأملات أيضًا كما اعتاد في كتاباته، قصصه ومقالاته، وبالتالي فالأزمة الروحية الفكرية محتملة جدًا في حياته، أعني أزمة مصطفى محمود وأبي حامد الغزالي وغيرهم، حقيقة الإيمان بالرب والغيب، والأسئلة من نوعية: لماذا جئنا؟ أين سنذهب بعد الموت؟ أين ربنا؟

هل كان كتاب مصطفى محمود هو شرارة النار التي كانت ستندلع في ذهن خالد ما طال به العمر؟ عن نفسي أرى هذا بعد تتبع سيرة حياته، ولا نستطيع معرفة متى انتهت أزمته بعد كتاب «الله والإنسان» وكم استغرقت من وقت، لكن صديقه يؤكد: ولقد عانى خالد «كثيرًا» حتى تخلص من تأثير هذا الكتاب السام وأشرق قلبه بنور الله١

لنقفز بالزمن ونرصد لقطة أخرى بعيدة في ٢٠١٠، ستكشف لنا عن عقلية الدكتور في عمر ٤٨ سنة؛ عندما أبدي رأيه في شائعة المعجزة الجغرافية للكعبة، ذلك المنشور الذي طاف كل المنتديات في ذلك الوقت، أن موقع الكعبة المشرفة على خريطة الأرض يحقق أفضل تناسب رياضي، ما يُعرف بالنسبة الذهبية أو الإلهية، وقتها كان أحد نشطاء منتدى «شبكة روايات التفاعلية» يثبت أن الأمر كله خطأ ومجرد مغالطة علمية، هنا رد الدكتور:

- كنت متأكدًا من هذا منذ قرأت عن الموضوع. والله العظيم الدين الإسلامي معجزته الوحيدة فكرية ومنهجية.. الإسلام يمثل نضج الفكر الإنساني والتفكير المنطقي، فلم يعد أحد بحاجة إلى أن تخرج له يدك بيضاء من جيبك ليقتنع كما كان الناس في عهد سيدنا موسى. لقد لخّص لورد (أحد الأعضاء الذين ردّوا قبل الدكتور) ببراعة كل شيء وأؤيده تمامًا: أصبحث أجد بحث المسلمين عن المعجزات الموجودة في الدين شيء شبه هوسي للغاية، كأننا نحتاج إلى معجزة لكي نؤمن بأننا الدين الحق.. أشعر أن المسلمين اليوم أصبحوا في حاجة إلى شيء يجعلهم يصدقون أن دينهم ليس سبب تخلفهم.. وهو أمر حقيقي دينكم يا سادة ليس سبب تخلفكم، أنتم سبب تخلف أنفسكم.. لا اقترابكم من الدين أو ابتعادكم عنه.. أعتقد أنه من الخيبة الثقيلة ألا نقوم بأي بحث علمي محترم في أي شيء.. لكن لو ظهر أي شيء من الغرب نلوي شفتينا في ثقة ونقول.. هأ هأ.. موجود في القرآن، طيب يا شاطر ما جبتهاش أنت ليه طالما موجودة؟»

هذه هي الكلمة الفاصلة في رأيي، ولهذا أمسح أي خطاب يصلني تجد في عنوانه كلمة (إعجاز).. إلخ.. إن بيزنس الإعجاز يحقق المليارات لأصحابه، لكنه ثغرة مهمة للهجوم على الإسلام عندما يتضح خطأ الكلام، كما أنه يزرع الشك في نفوس كثيرين.. سامح الله من كونوا المليارات بهذه الطريقة، أما إن كانوا من أعداء الإسلام فأنا مُعجب ببراعتهم برغم كل شيء، وقد شهدت ميلاد (معجزة جديدة) مُلفقة في أحد مواقع الملحدين، ثم سرعان ما رأيتها في المنتديات الإسلامية..

كلنا نملك شكوكًا.. عندما يغمرني الشك لا أفكر في النسبة الذهبية وعدد كلمات سورة كذا الذي يماثل سرعة الضوء، أفكر فقط في المعجزة التي تحولت بها قبائل بدوية شديدة الغلظة إلى حضارة كاملة لها علوم وطب وفلسفة وموسيقا وفكر. كل هذا اعتمد على شخص واحد وكتاب واحد.. القرآن هو معجزة الإسلام الحقيقية»[٥]

كما نرى، لقد عبر أزمته الروحية واطمأن، وفي أحد آخر كتبه «خواطر سطحية سخيفة» من نوعية التدوينات القصيرة، نرى ثباتًا كبيرًا على موقفه من الدين، بقوله:

- يقول المعري: «قال المنجم والطبيب كلاهما: لا تحشر الأجساد.. قلت: إليكما إن صح قولكما، فلست بخاسر، أو صح قولي، فالخساز عليكما»

هذا منطق عجيب.. لا يمكن أن أتخلى عن الشهوات وأصلي وأصوم وأحج وأجاهد (لمجرد الاحتياط). إما أن تؤمن أو تكفر ولا توجد حلول وسط. لا يمكنك أن تمارس الدين وفي ذهنك أنه قد يكون أو لا يكون.(٦)

هذا هو خالد في إيمانه وتدينه، حسب آرائه الشخصية وتجربته الإنسانية، فماذا عن تأثير ذلك على أدبه وكتابته؟ الإجابة ستعود بنا إلى بداية حديثنا، فيبدو أن العلاقة المبتورة بين الدكتور ومصطفى محمود، كانت أحد أسباب تجنّب الأول للثاني، بل إنه «**لم يغفر لمصطفى محمود قط، حتى بعد أن غيّر مساره إلى الإيمان، بل ظل على رأيه السلبي فيه.. وكان يلوم والده لأنه احتفظ في مكتبته بهذا الكتاب**»١

****

الآن عرفنا منبع العهد الذي كتبه خالد على نفسه في سلاسله الأولى، أن تكون مناسبة للفئة العمرية الحساسة التي يتوجه لها، وهذه ميزة أخرى لكتابات الرجل في ميدانه، فبما أنها موجّهة لليافعين والمراهقين والشباب، إذن فلتكن «راقية» بقدر الإمكان، والرقي هنا نسبي طبعًا، بمعنى خلو السلاسل مما قد يؤذي هذه الفئة، وهو «الثالوث المحرم» المعروف: الدين والسياسة والجنس.

لم يحب خالد أن يكرر ما حدث معه حين قرأ مصطفى محمود وأصابته أزمة فكرية في وقت لا يتحمل هذا على الإطلاق، فالمراهقة واليفوع -بكل تأكيد- غنيان بالمشاعر المشتعلة والهرمونات الغزيرة، كيف يضيف إليها خالد شبهات عقائدية أو شكوك سياسية أو بهارات جنسية؟ لقد التزم بأخلاقياته التي تسربت خلال الأعمال، التي مثلت سقفه مع جمهوره الخاص٧، وقالها صريحة لأحد الصحفيين حين جاءت سيرة الرقابة: «**أنا أكتب لمراهقين،**

وكتبي تدخل كل البيوت، لا أريد أن أفتح مواضيع خلافية لهم، لكني أرمي لهم إشارات لأبواب ومسارات أخرى»١٣ طبعًا يقصد المعلومات الموثقة والإحالات الأدبية، أي الطبيعة الموسوعية التي ذكرناها في الفصل الأول.

على سبيل المثال لا الحصر، في مسألة الجنس مثلًا، تناولها خالد خلال إحدى قصصه في سلسلة «سافاري» بعنوان PCR، حين حكى عن علاقة غير شرعية بين طالب جامعي وزميلته الأجنبية، ويُصاب الطالب بمرض الإيدز، فيسأله صديقه إن كان السبب هو حقنة ملوثة، فيجيبه الطالب: **«بل هو السبب الآخر»**، قاصدًا أن يصل المعنى بلا تفاصيل حميمة.

نفس الشيء فعله في العدد ٥٦ من سلسلة فانتازيا، والذي يحكي عن ألف ليلة وليلة، وقد أتى ذكر الخصيان في الحرملك، فوصفهم قائلًا: **«هؤلاء العبيد عولجوا بطريقة خاصة كي يخلوا من هرمونات الرجولة، ومهتهم حماية النسوة في الحريم.»**

في رده على أحد القراء يقولها بصراحة:

- أنا فعلا ضد زيادة كم الجنس في عمل أدبي .. لا بد من وضعه لأنه جزء من نسيج الحياة، لكن لا يجب أن يستسلم الكاتب لعقده الخاصة ويعيش أحلامه على الورق .. يقولون إن الجنس كالطعام .. وهل قرأ أحدنا يوما قصة تقول: «أمسك عادل بالدجاجة وشمها بجوع .. ثم أمسك بالفخذ وقضم منه قضمة كبيرة.. وراح يتلمظ بالمذاق .. ثم دس في فمه قطعة من الكبد»؟ لا أحد يكتب هذا وإلا لاتهمته بأنه رجل جوعان محروم .. نحن لا نقبل هذا في الأكل ونقبله في الجنس.. باختصار.. ما لم يكن الكاتب من وزن نجيب محفوظ يستطيع التعالي فوق عقده الجنسية الشخصية فلا داعي في رأيي لهذه اللعبة الخطرة .. وما زال من الممكن أن توحي بأي مشهد جنسي من دون وصف تفصيلي .. بل إنني أعتبر التلميح براعة١٥

****

جانب آخر هام لعقيدة خالد الأدبية في سلاسل الجيب، ما فعله ببطله رفعت إسماعيل فيما بعد، حين جعله «هادمًا للأساطير» في الغالب وليس مُرسِّخًا عليها، فرفعت كان متيقنًا في كل قصصه أن الخوارق التي يراها لا تتعارض مع ثوابته الدينية، وكل الزومبي «الموتى

الأحياء» كانت لهم أسباب منطقية، ولا حديث عن جن بالمعنى الصريح، فالحق أن كل كتاب كان يكشف حقيقة الأسطورة ولا يؤكدها، يقول:

- لم أصادف حتى اليوم أسطورة تصطدم بالدين وتثبت صحتها، قد تصطدم بالعلم وهذا يحتمل الجدال، لكنها لا تصطدم بالدين أبدًا إلا واتضح أنها أكذوبة.

مثلًا في عدده الخاص «في كهوف دراجوسان» يقول على لسان رفعت إسماعيل، الذي يخبره صديقه إن المومياوات تحيا من موتها

- سأقبل أي شيء تقوله لكن لا تحدثني عن أن هذه العظام تنهض وهي رميم، هذا يدخلنا في قائمة أخرى هي الهراء ذاته٨

حتى عندما لجأ في قصصه إلى ما ورائيات لا تفسير لها، نسبها أحيانًا إلى السحر، وهو الثابت في العقائد السماوية جميعها، كما ابتكر شخصية من الجحيم بالمعنى الحرفي، وأسماها دكتور لوسيفر، وهي كلمة لاتينية تشير إلى الشيطان، واتضحت فعلًا حقيقته الشيطانية في نهاية السلسلة.

حين سئل عن تجنّبه للجن في كتاباته، أجاب:

- رفضت ذلك لأنني وجدت مثلًا أن الحديث عن الجن سوف يفسر تفسيرات أخرى، ففي رواية جونتنامو للكاتب يوسف زيدان حكى أحد شخوص العمل داخل الزنزانة أنه رأى جنيًا، فرد عليهم أحد المساجين نافيًا مسألة ظهور الجن في الزنزانة، فوجدهم في خطبة الجمعة يتحدثون عن أن منكر الجن يستتاب وإن لم يتب قطعت رقبته وبدأ الجميع في السجن يتجنبونه لأنه أنكر وجود الجن، بينما هو أنكر وجوده في الزنزانة، فلم أرد أن أصطدم بذلك الجانب، أما الكلام عن الزومبي والفمباير فهي ثقافة أخرى والتجوال بداخلها أكثر أريحية١٢

وبالنسبة لورود بعض الإيمانيات في كتبه، يعترف:

- اللمحات الدينية في القصة لا أكتبها عمدا وإنما تأتي من تلقاء نفسها أو يفرضها

السياق، أكثر ما أمقته تعمد إيصال رسالة.. إن القارئ ذكي وأية محاولة لتوجيهه تجعله يفلت منك.. فقط أنا أعرف بطلي جيدًا وأعرف أنه متدين محترم، لهذا أطمئن عليه وأتركه يتصرف حسب ما تربى عليه١٥

****

حتى العلاقة الحميمية لبطله رفعت إسماعيل بحبيبته ماجي ماكيلوب، قال عنها الدكتور مباشرة حين سُئل:

- لا يجب أن أحكي كل شيء عن البطل.. صحيح أننا رأينا رفعت وهو يصلي ويسمع أو يتلو القرآن كثيرًا، لكن تفاصيل حياته الجنسية مثلًا لم ترد في النص لأنها غير مطلوبة ولن تضيف شيئًا. هذه ليست اعترافات جان جاك روسو. لكن تصوري الخاص أنه يخفي عنا الكثير فيما يتعلق بعلاقته بماجي.. رفعت لا يحكي لنا من حياته سوى مغامراته مع الرعب.. الباقي كله محذوف٩

لماذا كل هذا؟ يقول الدكتور إن هذا دوره ورسالته ومسؤوليته تجاه جمهوره، فهو يريد للأخ أو الأب، أن يطمئنا حين يريا الأخت أو الابنة يقرآن سلاسل الجيب، لأن الفتاة جالسة مع «عمو أحمد» الذي يراعيها كأنها من عائلته، حتى أنه طلب من بعض قارئاته ألا يقرأن روايته «يوتوبيا» لأن تصنيفها للبالغين، وبالتالي «**ليس هذا ما اعتاد عليه القراء**» من مؤلفهم، بل وأوقف ذِكر بطله رفعت إسماعيل الغزير للسجائر، لأنه عرف أن أحد القراء تأثر ببطله لدرجة تقليده والتدخين مثله٧، وقالها صارخة لأحد القراء في البريد:

- لستُ ضد الأنثى المُدخنة.. أنا ضد الإنسان المُدخِّن أصلًا! والحقيقة أن التبغ يحفر لي قبري، وأنا عاجز.. لهذا أقول لكل كائن حي: لا تبدأ أرجوك!١١

الفصل التاسع

بطل ولكن

أصلع كحوض لأسماك الزينة، نحيل كالقلم الرصاص، معتل الصحة كمستعمرة درن كاملة، يُدخّن كـ(برلين) حين دخلها الحلفاء

أحمد خالد توفيق يصف بطله «رفعت إسماعيل»

قال خالد إنه أصيب بولع القراء ونهم المعرفة بطريقة غير عادية، كنبات يمتص بجذوره كل السوائل التي تقابله، حتى وإن كانت قطرة عرق[1]، تمامًا كما وصف نفسه مرارًا بورقة النشّاف التي تستقي الأفكار؛ مكتبة الأب شامخة في الخلفية تناديه، ومجلات تان تان المتتابعة التي يراسلها، وكل ما نتوقع وصوله لعينه من سطور مكتوبة.

هنا من الواضح أن أحمد، القارئ الشره قد وجد لعبة جديدة طريفة، لماذا لا يكتب بدلًا من أن يقرأ؟ إن رأسه ممتلئ بأبطال روس وحسناوات سلافيات وعُقد نفسية وصراعات وجودية أكبر من سنه، وبالطبع مخاوف الواقع المتزايدة، كل هذا جعله «يغلي» بحد تعبيره، بالسؤال المنطقي: لماذا لا أكون من هؤلاء؟[3] إنه يغص بما قرأ، وبالتالي لا بد لطوفان ظنوني من قناة كما يقول نزار قباني، وبالطبع لعلاجه النفسي من المخاوف والغليان الداخلي، وشغل وقت فراغه ولاستمتاعه الذاتي[2].

يقول إنه محاولاته في الخط بالقلم سبقت تعلمه للقراءة أصلًا[21]، هكذا صار يكتب بنشاط محموم، لا يفارقه قلمه، وكراسته حاضرة دومًا ليسطر ما يرد بباله، قصص.. خواطر.. أشعار.. وما إلى ذلك، بالإضافة إلى الرسم أيضًا، ويخبرنا أنه كتب رسالة توديع للعالم في سن السابعة، لعلها محاولة أخرى لتفريغ مخاوفه[26]

لكنه عندما سُئل عن أول ما كتبه، قالها صريحة: أنا أكتب طيلة عمري، ولا أستطيع تذكر المرة الأولى[3]، لكن كل من قرأ له كان يقولها بملء فمه: أنت جيد، استمر[18] بل وجاءته بشارة

من أم صديقه أيمن حين قرأت قصصه، قائلة إنه سيصبح مثل نجيب محفوظ، المدح الذي أخجله كالعادة١٩.

ليس هذا فقط، فخالد يكتب موضوع تعبير يفيض فصاحة وأدبًا، لدرجة أن معلمته اتهمته بالسرقة، فكيف يكتب طفل مثله: فلما انبلج الهزيع الأخير من الليل تبلغث ببعض الطعام؟ دافع التلميذ الموهوب عن نفسه: أنا من كتبه ولم أنسخه! لكنه وجد يد المعلمة تضرب وجهه بالكراسة مع تحذير ناري: متكدبش تاني!٢١

مديح آخر مبكر للغاية، وذم متأدب، تسلّمهما خالد في رد محرر مجلة تان تان، حين كتب له على صفحات المجلة المنشورة:

- خطابك قطعة من الأدب الرفيع، تأثرت لكل كلمة جاءت فيه لأنها كلمات صادقة، نابعة من القلب.. قصيدتك تنبئ بمولد شاعر وسأسعد بنشرها، أما الرسوم فليست في مستوى القصيدة٢٠

****

بخلاف أشعاره التي بدأ بها، فنحن لا نملك معلومة عن القصة الأولى لأحمد، لكننا يقينًا نعرف موضوعها، لقد بدأ من الروس كما نتوقع، وكما اعترف قائلًا إن «**الروس هم من جعلوني أمسك بالقلم**»٢٢

بدأ تحديدًا بـ«تشيكوف» و«مكسيم جوركي» في نوعية الواقعية الاشتراكية، نعم كتب الكثير من القصص الاجتماعية منذ هذا الوقت المبكر، ومع الوقت ملأت درجه إلى حد الامتلاء، لكنه يصفها بـ«**قاتمة وبائسة جدًا**»، غير أنه حاول كثيرًا تقليد أسلوب الكاتب الفرنسي جوستاف فلوبير في أشهر أعماله التي قرأها في الابتدائية١٨، لكنه «فشل» بحد وصفه٤، وفي سخرية معهودة يقول عن تلك المحاولة:

- في هذا الوقت كانت طموحاتي بلهاء؛ كنت أرغب في كتابة رواية رومانسية طويلة تشبه رواية «مدام بوفاري» التي كنت قرأتها في هذه السن.. وكان مصير محاولاتي تلك معروفًا .. القمامة بالطبع!٥

بعيدًا عن القصص الكئيبة المتأثرة بالروس والمُكدسة في الخزانة، والمحاولات غير المكتملة في مسيرة خالدنا، نحن على وشك أن نشهد حدثًا فريدًا للغاية في فترة كتاباته الأولى تلك، حين قرر في الصف السادس الابتدائي أن يسطر قصة ما، والتي وصفها بالساذجة البسيطة، لكنها حملت تذكرته المستقبلية إلى القراء، وشهدت ميلاد أهم أبطاله على الإطلاق٦.

****

رفعت إسماعيل.. هل يصلح هذا الاسم بطلًا لسلسلة يواجه فيها المسوخ والوحوش وكل مظاهر الرعب الميتافيزيقي الخارق للعادة؟ صحيح! فالاسم يدل على المقصود تمامًا، رفعت لا ينتمي لطراز الأبطال المعروفين، الوسيمين مفتولي العضلات بأسمائهم المُتقفة فخيمة الوقع والرنين، إنه -على سبيل التجديد الممتع لكثيرين- عكس ذلك كله.

هو نقيض البطل Antihero وفق التعريفات الأدبية، وكما وصفته إحدى القارئات في حضور الدكتور «أخرق وليس خارقًا»٨، فبينما يتميز بعض الأبطال بالقوة، وبعضهم الآخر بالذكاء، وثالثهم بالوسامة، وما يشبه ذلك من صفات «البطولة» المعتادة، يتميز رفعت بأنه لا يتميز بشيء، لا مهارة خارقة من أي نوع، اللهم إلا أفكارًا لامعة تأتي لمخه المنظم، فتفشل أحيانًا وتنجح أحيانًا أخرى، مثلنا جميعًا، ومع هذا يصبح رفعت «بطلًا» لـ ٨٠ عددًا في سلسلة ما وراء الطبيعة.

كيف استوحى القارئ الصغير بطله الخاص به؟ نحن لا نتحدث عن كون رفعت طبيب أمراض دم ومهاجر إلى إسكتلندا وحبيب ماجي ماكيلوب الأجنبية الشقراء، فهذه صفات متأخرة بلا شك، أضافها الدكتور في شبابه، حين استعاد رفعت مجددًا وأخرجه من الثلاجة بحد تعبيره٦، فأعطاه مهنته الطبية أولًا، ثم بقية تفاصيله بعد ذلك، لكن يظل السؤال صارخًا: من أي خلية في عقل تلميذ الصف السادس الابتدائي نبتت شخصية مُعقدة متفردة كهذه، لدرجة أنه لم يغير اسمه وقت استعادة الشخصية٦!

****

الإجابة عن السؤال بكل تأكيد مردها إلى الخيال، فقد وصف خالد نفسه بوضوح «**خواف متسع الخيال يستكشف كل شيء من حوله**»٧ حيث توجد إلهامات عديدة فعلًا تحاوطه؛ فهو لم يبتدع نمط نقيض البطل من الصفر، بل وجده على الأغلب فيما قابله من أعمال فنية على الأوراق والشاشات كذلك، والأمر كله بدأ من الأدب البوليسي، وأدب الجريمة والمخبرين، مع الفروق الدقيقة بين كل نوع.

فقد التهم خالد كل ما وجده من روايات آرثر كونان دويل صاحب المحقق الأشهر شيرلوك هولمز، وأتبع ذلك بقراءة ما شابهه في هذا الفن، لكنه حمل تقديرًا كبيرًا لـ«أجاثا كريستي» التي «**دخلت حياته لتبقى**»٤ وكانت قصصها الأمتع لديه، بل وحوّلت القصة البوليسية في رأيه إلى فن كلاسي عالمي٥، وعبر قصصها تحديدًا يظهر نقيض البطل بوضوح في شخصيتها الأشهر٨، المخبر البلجيكي «هيركيول بوارو»، محقق عبقري نعم، لكنه أصلع قصير مائل إلى البدانة، ذو لكنة إنجليزية كوميدية يصر على أنه يجيدها، فضلًا عن اهتمامه بالنظام والنظافة حدّ الوسواس القهري، إلى درجة تشذيب شاربه دومًا واستخدامه للمناديل المربعة، وتظل أمنيته الأبدية أن يجد بيضًا مكعبًا متماثل الأضلاع!٩

بوارو -بلا شك- أحد أهم نماذج نقيض البطل في الأدب العالمي، فهو بجانب كل هذا، يمتلك عددًا من الصفات التي لا تليق بالأبطال المعتادين إياهم، يخترع دائمًا اقتباسات لا وجود لها في الأدب الإنجليزي ليثبت سعة اطلاعه، ليصبح أكثر المخبرين تعاليًا وغرورًا بطريقة تدعو إلى الابتسام؛ فلا يكرهه القارئ، كل هذا دعا خالد لاعتبار هيركيول بوارو شخصية ثلاثية الأبعاد وربما رباعيتها٩

شخصية أخرى قريبة للغاية من بوارو كان لها فضل التأثير على خالد، انطلقت على الشاشة الصغيرة في العام ١٩٧١ لتخلد في قلوب كل من رآها، نتحدث عن المفتش «كولومبو» أشهر محقق تلفزيوني أمريكي، وصورته الأيقونية الفريدة بما يصيبه من «دهولة» بحد تعبير خالد، فيسقط معها سيجاره وتصيبه الريكة دائمًا٨، ما أبقى سيرته حية لدرجة اختراع «المفتش كورومبو» المصري في الألفينيات على أساسه!

كل هذا يذكرنا مباشرة بمحقق فرنسي آخر في سلسلة أفلام تحمل عنوانًا معبرًا جدًا وهو النمر الوردي The Pink Panther، المفتش الفرنسي جاك كلوزو مُفرط السذاجة، الذي كان نقيضًا واضحًا لـ«شيرلوك هولمز» فهو أبعد ما يكون عن العبقرية ولغته الإنجليزية كسيحة هو

الآخر، متى كان عرض النمر الوردي سينمائيًا؟ في سنوات الستينيات والسبعينيات، ما يعني احتمالية شديدة لتأثر خالد العاشق السينمائي به، خاصة وأنه كان شخصية ثانوية في الجزء الأول، ثم جعلوه البطل الرئيس من فرط نجاحه١٠.

وبعيدًا عن الروافد الأجنبية لنقيض البطل، تطل شخصية مصرية صميمة للراحل محمود سالم في رائعته الشهيرة «المغامرون الخمسة» والتي يقول عنها خالد ببساطة: أعتقد أن هذه السلسلة الممتعة قد تركت علامة لا تُمحي لدى كل مراهق بدءًا من سبعينيات القرن الماضي، كنت أنا في المدرسة الإعدادية، أتابع بنهم مغامرات الصبي البدين تختخ١١

هذا ما حدث للدكتور فيما بعد، لقد التمعت علامة سلسلة محمود سالم لديه، حين كتب كتيبًا كاملًا في حبها بعنوان «خمسة منهم» مؤكدًا إن كل سبعينياتي عرف اختراع الكتاب يعرف هؤلاء المغامرين وقائدهم تختخ، الذي وصفه بـ«**أول نقيض بطل يعرفه القارئ العربي**» فهو الذي يملك كل شيء ينفّر شكليًا ويجذب عقليًا، يمتلئ دهاءً وذكاءً، شديد الغمق والتجسيد، شيّد محمود سالم -العبقري- شخصيته عبر عشرات الكتيبات، ليصبح جديرًا برتبة العقل المفكر والمحرك للخماسي المغامر١٢

****

بوارو، وكولومبو، وكلوزو، وتختخ.. لنترك نقيض البطل قليلًا ونتساءل: لماذا كلهم محققون؟ ربما هي الصدفة فقط، أو لأنها كانت فترة انتعاش أدب المخبرين في السينما والأدب، طبعًا السؤال يطرح نفسه: هل كتب الدكتور في هذه النوعية؟ الحق أنه فعل.. ولم يفعل!

نعم كتب بعض قصص التحقيق، منها واحدة شهيرة في العدد ٣٠ من ما وراء الطبيعة، حيث دارت فرضية بوليسية ممتعة للغاية تُدعى «لغز الغرفة المغلقة» وتحكي عن الطرق التي يستطيع بها المجرم قتل ضحيته في غرفة مُغلقة الباب تمامًا ونوافذها موصدة، وابتكر الدكتور في القصة مفتشًا باسم سراج، لكنه كان ظهوره الأول والأخير١٤

بخلاف هذا، اعترف خالد بكتابته لبعض القصص البوليسية، لكنه «**لم يحب ما كتبه**» واكتشف أن أجواء التحقيق البريطانية أو الأجنبية عمومًا لا تصلح في بلده، لأن الجريمة

عنده اندفاعية جدًا، ولن يصدق القارئ العربي مقدار الدقة والتخطيط في القتل والسرقة، فضلًا عن عدم وجود مهنة المحقق الخاص في مصر، وبالتالي من الصعب أن نتخيل جملة مثل: أشعل المفتش بيومي غليونه وألقى نظرة على المدفأة! لهذا كله، أقر الدكتور صراحة: توقفتُ عن المحاولة وقررت الكتابة في مجالات أخرى ومنها الرعب والفانتازيا، وازداد احترامي لكتاب القصة البوليسية١٣

لكنه لم يتخل عن استخدام التيمة البوليسية في شكل مقال ساخر مُغرق في الكوميديا السوداء، حين تحدث عن قضية في مستشفى مصري يحلها المفتش أرشيبالد مكالستر من سكوتلانديارد! لكن الجريمة لم تكن قتلًا للطبيب المقيم، وليست اختلاسًا لمبلغ ضخم من المال أو المصوغات، بل كانت سرقة لـ.. لـ.. لحقنة شرجية جديدة! صحيح.. من فرط البيروقراطية والروتين والتعقيد الإداري والفقر والتكالب على العلاج النادر، حدثت السرقة المأساوية التي تجلب الضحك من شر البلية١٥

maktabbah.blogspot.com

حتى في حبكات قصصه اللاحقة، يسترجع الدكتور عشقه للقصة البوليسية٩، ويكتب عدة كتيبات وقصص في فلك الجريمة والتحقيق، بل إن أول عدد من سلسلته «فانتازيا» المعنون «قصة لا تنتهي» ضم مقابلة مباشرة بين أهم محققين في هذا الأدب، شيرلوك هولمز وهيركيول بوارو، ثم تطور الأمر أكثر في عدد كامل عن البوليسية بعنوان «**من فعلها؟**» يفترض اجتماع كل محققي الأدب في قصة واحدة، سواء الاثنين السابقين وغيرهما مثل المفتش «ميجريه» الفرنسي، وكوين الأمريكي، ومس ماربل، كل هؤلاء اشتركوا في قضية واحدة، ولعلّ الدكتور كان سيضم إليهم «المحقق كونان» إن كان مهتمًا بفن الأنمي الياباني.

ومن الأدب البوليسي نلاحظ إشارة أخرى ذات مغزى، ففي حديث صاحبنا عن أحد أشهر أعمال أجاثا كريستي «**ثم لم يبق أحد**» ذكر أن الرعب في القصة جذبه وراق له كثيرًا، وجعله يثب ٣ أمتار من فرط الذعر أحيانًا، رُغم أن «كريستي» لا تكتب أدب الرعب في الأساس٤، إنه الشغف الأقوى يبزغ حتى في قصة عن تحقيق، وكأن خالد يرى مستقبله في كل شيء.

****

إذن، فقد عدنا إلى الرعب مجددًا في مسيرة خالد، بعدما عرفنا كيف استلهم بطله، أو نقيض بطله، ابتكره نمطه المختلف مبكرًا نعم، لكنه أسبغ عليه من سماته الشخصية متأخرًا، حتى إنه أجاب عندما سُئل عن أحب شخصياته إليه:

- طبعًا رفعت إسماعيل.. إنه ابني البكر وأخي وربما أنا كذلك١٦

وفي موضع آخر يحسم المسألة عن منابع الشخصية، بقوله:

- هو خليط من ترسبات وشخصيات لا حصر لها، منهم صديقي العزيز أستاذ العظام، لكن جزءًا كبيرًا منه هو أنا طبعًا!٥

أما عن التشابه بين رفعت وتوفيق، فيقول الأخير:

- العصبية-سرعة الملل-التدخين المفرط-الاستمتاع بالوحدة-الفشل التام في الاحتفاظ بعلاقات اجتماعية محترمة .. أعتقد أن هذا تشابه كاف جدًا.

هذا هو رفعت إسماعيل، نقيض البطل القادم غالبًا كما أوضحنا من نماذج كثيرة شبيهة لمحققين، لكن ما الذي يميزه بجانب «عالمية» نمطه؟ وجاذبية اختلافه وسحره الخاص؟ الإجابة في «التماهي» والاندماج مع القارئ، فمن ينكر أن رفعت أقرب لك من جيمس بوند؟٨ إنك لا ترى في شيرلوك هولمز نفسك، لكن قد تفعل مع بوارو الموسوس وتختخ البدين ورفعت البعيد عن الوسامة، أنت تتخيل نفسك مكان هؤلاء، الذين يحققون ما تريد برغم أنهم محض بشر مثلك، بل ربما أقل وسامة وقوة منك.

****

وبخلاف رفعت إسماعيل، لماذا كتب أحمد قصص الرعب تحديدًا في سن مبكرة؟ لقد قالها صراحة أكثر من مرة:

- لم يكن الرعب عندي سوى دركولا وفرانكنشتاين ودكتور جيكل ومستر هايد، الأعمال التي رأيت كتبها في طفولتي٢٥، لهذا كنت أبحث عن كتب أخرى في نهم ولم أجد العدد الكافي الذي يشبعني، فقررت أن أكتبها أنا شخصيًا حتى يكون لدي ما يكفيني منها!١٧

أين كانت قصص الرعب الأجنبية العديدة إذن؟ الإجابة عند أحمد خالد توفيق مترجم

الفصل العاشر

رعب مترجم

لا أعتقد أن هناك كلمة بأية لغة أجنبية مرّت بي ولم أحاول حفظها

أحمد خالد توفيق، مقال: قُرب الجبل امرأة مَرِحة

موقع «بص وطل» - ٣١ أغسطس ٢٠١٠

لم يكن «خالد» في مستوى اجتماعي مرتفع من الناحية المادية، بل هي الطبقة الوسطى حرفيًا كما يصفها، حيث تتكرر الضوائق المالية والكلمات المُربكة مثل «**إحنا مزنوقين**» في الشهر عدة مرات١، صحيح أن الأب مدير شركة كبرى، لكنه شريف أمين لم يختلس قط٢، عاش حياته من اليد إلى الفم، وينوي ألا يترك ميراثًا لأبنائه سوى التربية الحسنة، ومئات الكتب في المكتبة طبعًا١٧، ومن ثم كان حسابه في البنك مُذريًا، بل كان الأب يزعم أن بعض الأفلام «أبيحة» ولا يجب رؤيتها أو اصطحاب خالد إلى السينما من أجلها، فقط لأنه يعاني من ضائقة مالية٢٣

رُغم هذا الحال الاقتصادي المضطرب للأسرة، التحق أحمد في مساق -كورس- خاص باللغة الإنجليزية في دار الكتب، ربما لأن مقابله كان زهيدًا، لكن متى كان ذلك؟ بعد انتهاء يومه الدراسي مثلًا؟ بل في غطلة الصف الأول الثانوي!٣ صاحبنا كان مجتهدًا في المعرفة إذن، وفي الوقت الذي يمكنه أن يلهو فيه كما يشاء، أراد أن ينهل المزيد، كما لم يقتصر على كتب والده العربية، بل لعله أراد أن يقرأ كتبًا أخرى بثقافات مختلفة، كالأفلام الأجنبية التي يشاهدها.

امتد شغفه إلى اللغات إذن، تمامًا مثل والده، وبتشجيع أساتذته الذين وجدوه موهوبًا بالفعل في تعلم اللغات٥، ولأن إنجليزيته كانت «سيئة للغاية»٤، نجده يسعى إلى تطويرها، بالاستماع للأغاني التي يحبها أصلًا، لدميس روسوس والبيتلز وآبا وبي جيز وإريك كلابتون وبوني ام ورود ستيوارت١٨، ثم كتابة الكلمات الإنجليزية بحروف عربية تساعده على نطقها،

ومتابعة برنامج لغات في إذاعة الشرق الأوسط، وتجميع الكلمات الأجنبية من الكتب التي يقرأها، وأخيرًا بالمساق الذي سيشهد تميزًا كبيرًا لخالد، الذي بدأ دراسة اللغة في الصف الأول الإعدادي، حسب نظام التعليم وقتها.

يحكي عن منهجه في استنباط اللغة بشكل عام، قائلًا:

- فهم معنى الكلمة يأتي من سياق الكلام غالبًا .. يمكنك معرفة ٥٠٪ من معاني الكلمات عن طريق السياق، كما أن مشاهدة الأفلام الغربية مفيد .. في سن المراهقة كدت أجن لمعرفة معنى تعبير: What the hell is going on؟

ما دخل الجحيم في العبارة؟.. (ما الجحيم يحدث هنا؟).. مشاهدة الأفلام علمتني أن معناها (ماذا يحدث هنا بحق الجحيم؟).. من الغريب أن هذه أمور لا تجد من يجيبك عنها أبدًا فإذا عرفتها زعم الجميع أنهم يعرفونها من البداية، فلماذا لم تسألنا؟

****

٤ سنوات من دراسة اللغة كانت كافية لتميز خالد في الإنجليزية، لدرجة معرفة كلمة صعبة طرحها أستاذه في المساق وتحدى طلابه إن عرفوا معناها مقابل جنيه كامل، طبعًا لم يرغب خالد في الإجابة لخجله الشديد رغم معرفته بالكلمة، فرفع الأستاذ قيمة التحدي شيئًا فشيئًا بثقة ملؤها الضحك (طيب خمسة جنيه/ طيب عشرة/ طيب خمسين/ طيب مية).

في النهاية وبتشجيع من صديقه أيمن الذي يشاركه المساق، أجاب أحمد بتردد، ليعلن الأستاذ صحة الإجابة بوجه محمر، يحاول تناسي رهانه فادح القيمة وقتها، ويرجو خالدنا الهرب من المكان ومن عيون الحاضرين المنبهرين بأقصى سرعة!

هكذا أكمل خالد تعلم لغته الثانية، وبدأ القراءة فعليًا بها منذ العام ١٩٧٣ - أي في عمر الحادية عشرة فقط- ولنا أن نتصور كم المعارف الجديدة المتاحة أمامه الآن، والقراءة لأدباء آخرين لم تترجم أعمالهم بعد، الشيء الذي أراد إشراك قراءه فيه فيما بعد بعد سنوات طوال، في أعمال كاملة ترجمها لهم.

****

ماذا كانت أقرب أعمال أحمد خالد توفيق إلى قلبه؟ قد نتفاجأ بأنها سلسلته في الترجمة «روايات عالمية للجيب»، تلك التي لم يؤلفها أصلًا، بل اختار فيها بعناية ما يترجمه من روائع الأدب العالمي مع اختصار غير مُخلّ، متخيزا الأعمال التي لا يعرفها القارئ عادة، لقد كان يراها **«أبواب يفتحها لقرائه من المراهقين والشباب»**٦ مُراهنًا على أن تبسيطه للنص الطويل الأصلي سيعجبهم، فلا أحد من الجمهور صغير السن نسبيًا سيُقدم على مطالعة ترجمة حرفية ضخمة كعبها عدة سنتيمترات، سيكون هذا عملًا أُضيف للرفوف ليس إلا٧ وهو بهذا يفلت من سجن الملكية الفكرية، فاتفاقية «الجات» الدولية تفرض عليه مكاتبة صاحب النص الأصلي، أما ما يقدّمه في سلسلته فلم يكن نقلًا للأصل وإنما «عرض» له.

هل تأثر في هذا المشروع بالمترجم حلمي مراد؟ الذي أصدر سلسلة «كتابي»-سنة ١٩٥٢ لنفس الهدف.. اختصار الروائع القصصية الهامة في كتيبات صغيرة؟٨ ممكن جدًا لأن أحمد اعترف بقراءة كتبه بالفعل، بل كان مولعًا بها٩

لهذا كله، حين سُئل: الكاتب أم المترجم؟ أيهم يقرّبك من المنطقة التي تحب؟ فأجاب بثقة:

- المترجم؛ أشعر بأنه يقدم خدمة حقيقية للناس، وأنني مفيد، مهنة الكاتب قد تحتمل الجدل١٩

ولا يترك الدكتور فرصته للسخرية من الترجمة كمهنة، فيعترف بأن كلمات عديدة تهرب من ذاكرته ويلجأ للقاموس في كل مرة يقابلها٢٠، كما يجد صعوبة في إكمال رواية مثل «فورست جامب» مكتوبة بلهجة الجنوب الأمريكي المراوغة٢١، ولا يستطيع تذوق الشعر الإنجليزي والشعور بجمالياته رغم فهمه له٢٢.

****

نعود إلى الرعب في حياة كاتبنا، كيف استلهمه في سنّه الصغيرة وما علاقة هذا بالترجمة؟ الحقيقة أن القدرة على القراءة بلغة أخرى عرّفت خالد على أدبيين أجنبيين هام بهما حبًا، وسوّد فيما بعد صفحات كثيرة في تفصيل عبقريتهما والتعريف بهما لقراء العربية، وهما

الأمريكي إدجار آلان بو (١٨٠٩-١٨٤٩)، ومواطنه الآخر هوارد فيليبس لافكرافت (١٨٩٠-١٩٣٧)، كلاهما من أساطين الرعب العالمي، وعلامتان كلاسيكيتان في مدرسة محددة هي الرعب القوطي، حيث البروق والرعود تدوي طيلة الوقت، والنفوس المعقدة تتولى بطولة القصة، أما الشرور فمستطيرة رهيبة، ومسرح الأحداث قصر أو قلعة مخيفة بطرازها المعماري القوطي، الذي أعطى المدرسة الأدبية اسمها١١.

لم ير خالد المباني القوطية في طفولته غالبًا، إذ انتشر هذا النوع من العمارة في غرب أوروبا خلال الفترة من القرن الثاني عشر حتى السادس عشر، تمتاز مبانيها بالقباب والأعمدة والأقواس المدببة، على خلاف المدارس الكلاسيكية في العمارة جاءت القوطية «**معقدة وغير متناسقة**»١٢ وكأنها تصلح لقصص الرعب فعلًا، التي أفرزتها الثورة الصناعية كأحد أشكال الرومانسية.

رومانسية ورعب؟ كيف يجتمعان! الدكتور نفسه يشرح لنا العلاقة بينهما:

- من الناحية الأدبية الصرفة، فالرومانسية مدرسة متشعبة تنضوي تحت عنوان واحد هو الهروب من الواقع.. الهروب من دخان المصنع الكئيب أيام الثورة الصناعية في أوروبا، ومن عصر العقل. هنا تلد المدرسة الرومانسية مدرسة صغيرة محندقة هي مدرسة الرعب القوطي١٠

أما عن ارتباط المباني القوطية بالرعب تحديدًا، فهذا لأن أول قصة من هذا النوع «قلعة أوترانتو» كُتب تحت عنوانها «قصة قوطية»، لأن مؤلفها هوراس والبول استوحاها من كابوس داهمه في بيته الذي ينتمي للطراز ذاته، فبدأ فرعًا كاملًا من الأدب١٣، انتمى إليه فيما بعد إدجار آلان بو وهوارد فيليبس لافكرافت وتلميذهما أحمد خالد توفيق، الذي تَبِع خطاهما وترجم لهما، حتى رواية قلعة أوترانتو نفسها مترجمة بقلمه باسم «قلعة الأسرار».

****

البداية إذن كانت مع إدغار آلان بو، الذي خصص له الدكتور عددًا كاملًا في سلسلته باسم «أسطورة بو»، حيث يحكي البطل «رفعت إسماعيل» عن ولعه بهذا الكاتب الأمريكي الفعذَب:

- كنت بطبيعة الحال قارئًا نهمًا لكل ما جادت به قريحة ذلك العبقري، قرأته بالعربية أولًا في سني صباي بالمنصورة، ثم قرأته بالإنجليزية -والقاموس جواري- في أعوام دراستي للطب.

يمكننا استنتاج أن الكلام أقرب للدكتور نفسه، ما يتوافق مع تحسس خطواته في الإنجليزية، أما الآخر هوارد فيليب لافكرافت، فقد وصفه ببساطة «كاتبي المفضل»٦ وذكر أنه «**استطاع أن يضفي على الرعب شاعرية أدبية معقدة، مع خلفية من الهواجس النفسية المظلمة ذات مذاق خاص، حيث الخطر ينبع من الداخل كما يفيض من الخارج**١٤» وفي موضع آخر على لسان بطله يصفه بـ«**أعظم كاتب رعب في القرن العشرين، ولعله الأعظم على الإطلاق**١٥»

بالطبع كتب الدكتور عن لافكرافت كتابًا آخر كامل باسم «**وحدي مع لافكرافت**» فضلًا عن ترجمة العديد من أعماله، مع تأكيده في المقدمة «**لا أنصح صغار السن بتاتًا بالقراءة، وهذه ليست دعاية بالمناسبة، بل هي الحقيقة!**»

****

الرعب.. ذلك البحر المظلم المريح برغم كل شيء، لقد ألقى خالد نفسه فيه، بالقراءة أو الكتابة، هربًا من ملل الحياة ورتابتها الفظيعة عنده٢٤، وخلاصًا من كل مخاوف الواقع، التي ذاقها بعضها وصار يخشى المزيد منها، فمجرد سكبها على الورق يشعره أنه قهرها١٦، وبهذا يتطهر من أدران رعبه.

يتطهر؟ صحيح، فهذا هو التفسير الأشهر لعشق البشر الرعب الخيالي، كما شرحه الدكتور مرارًا بعد ذلك.

****

«إننا نحب أن نجرب أسوأ الأشياء على الإطلاق.. حتى إذا انتهى العرض شعرنا بسرور عارم لأننا ما زلنا أحياء وبصحة جيدة.. فهذا يشعرنا بالتفوق وقدرتنا على الاستمرار، يسمون المبدأ كله باسم Catharsis أو تطهير، فأنت حين ترى الرعب تُغسل من

مخاوفك الداخلية الكامنة.. والأمر على كل حال لا يخلو من صدق.. فكل الأطفال يعشقون قصص (الغولة) وثرثرة الأمهات عن (العاو) أفلام الرعب تحقق أعلى الإيرادات.. وبيت الأشباح في مدينة الملاهي مكتظ دائمًا.. بل إنني أرى هذا الميل في أشياء بسيطة.. في زحام المتزاحمين حول حادث سيارة.. وفي كل من المتجمهرين نزعة ماسوشية خفية لتعذيب النفس برؤية مشهد الضحايا المشوهين.. بعدها يعود كل منهم إلى داره وقد تم تطهيره!»

ما وراء الطبيعة

العدد رقم ٣٠، بعد منتصف الليل

****

«إن الناس تحب أن تخاف، ولكن ليكن ذلك خوفًا مقننًا محدودًا (..) الرعب المروض.. أحب أن أتخيل ما سيحدث لو صادفني مصاص دماء على سلم داري.. لكنني لا أحب أبدًا أن يحدث ذلك»

ما وراء الطبيعة

العدد رقم ١٠، حلقة الرعب

****

هذا بالنسبة للقارئ، يقابل المخاوف ويتطهر منها، ولم يكن خالد استثناءً عن هذا، إنه يكرر ما فعله حين سطر الورقة إياها المليئة بمخاوفه، الآن سوف يكتبها في صورة قصص

- كتابتي في تيمة الرعب ما هي إلا محاولة مني للدوران خلف المدفع بدلًا من الوقوف أمامه٢٠ وكأني أصنع بأدب الرعب دائرة سحرية حول أسرتي وحول نفسي، إنني أخيف الناس الآن، فمن الصعب أن أخاف٧

****

هذا هو خالدنا، منذ طفولته الغضة وحتى الثانوية العامة، يرتع في بحور المعرفة والفن، كتب وسينما وكوميكس، بالعربية والإنجليزية، فهو لم يتخل عن قراءاته لحظة، فهل أشفع هذا الوله والولع بدراسة أكاديمية في الجامعة؟

الفصل الحادي عشر

جعلوه فانجعل(5)

المهن التي رغبنا في اتّباعها، تنزف كألوان على وجودنا كافة

الأديب الفرنسي أونوريه دي بلزاك

كان الأب صارمًا وقورًا على طول الخط كما عرفنا، لكنه -دون شك- امتلك من الحنان الكثير على ابنه الوحيد، لا سيما بعد رحيل الأم المفاجئ، ويذكر الدكتور بكثير من الامتنان، كيف انفجر في البكاء أمام أبيه ليلة امتحان الجغرافيا والتاريخ، لأنه لا يذكر شيئًا من المنهج، فلم يؤنبه الأب أو يلومه بالتقصير، وإنما ربت على كتفه ومنحه مراجعة طويلة مثمرة إلى ما بعد منتصف الليل١.

خالد، هذا الابن البار والمسالم، الذي طلب في مرة من قرائه أن يقرأوا لوالده الفاتحة٢، لم يكن ليعارض الأب حين أنهى الثانوية العامة بتفوق ومجموع كبير، فقد استطاع أن يروض جواد عقله الجامح ويستذكر٣ بعكس صديقه المقرب أبهج الذي التحق بكلية العلوم، ولأننا نعرف جيدًا الآن ما يحبه خالد، فلنا أن نتوقع ميله إلى دراسة الفنون، ولكن الأب يرفض اقتراح الالتحاق بمعهد السينما تمامًا حين عرضه خالد عليه، قائلًا إنها فكرة حمقاء١٧، رغم أن الوالد نفسه كان صاحب الفضل في عشق ابنه للشاشة الكبيرة، وبالنهاية يفاجئنا خالد بصراحة باردة:

- أهلي أرغموني على دخول الطب بسبب المجموع العالي٤

****

في العدد ٥١ من ما وراء الطبيعة «أسطورة الرقم المشئوم» يحكي لنا الدكتور عن شاعر شاب، حالم بشدة ونقي إلى درجة الشفافية المفرطة، فهو **«راض عن نفسه إلى حد مرعب»** ولم يتحمل خشونة الواقع لأنه **«قلب يمشي على قدمين»!**

الخلاصة أن ذاك الشاعر المرهف فشل في بيع ديوانه الأول والأخير، وهكذا تدمر تمامًا مع انهيار أحلامه، فقتل نفسه في الثلاثين من عمره، وبمنتهى ثبات الأعصاب والكوميديا السوداء، يرصد لنا الدكتور زيارة الصحافة لأهم البشر في حياة الشاعر الراحل:

- قابلنا حبيبته التي خلدها في ديوانه، وهي -بالمناسبة- قريبته، وسألناها عن مشاعر الأنثى يوم تفقد شاعرها، فقالت إنها أصيبت بإسهال شديد لم يستجب لأي علاج معروف، وإن كانت تُرجِّح أن هذا بسبب وجبة من الفسيخ الفاسد اشتراها زوجها. لم نكن نعرف أنها متزوجة لكنها قالت إن على المرأة أن تبحث عن مستقبلها لأن الشعر لا يطعم الأطفال.

هكذا توفي الشاعر العظيم.. عاش بقلب طفل.. ومات كسير القلب وحيدًا .. وودعه من يعرفونه بالدموع والإسهال.. إلخ.. إلخ!!!

****

كما نرى.. كأنه مقطع مستقبلي كتبه الدكتور ليؤكد أن رؤية أهله كانت صحيحة إلى حد كبير، حين أجبروه على استغلال مجموعه الكبير في كلية عملية تضمن الوظيفة المُجزية، كما هو الحال مع أخته الكبرى الطبيبة والوسطى المهندسة، باختصار: هي كليات القمة كما يشتهر المصطلح المصري.

طيب هو الآن لن يتفرغ للأدب.. فهل هذا جيد للأديب أو الفنان بشكل عام أصلًا؟ أن يعمل في وظيفة أخرى إلى جانب موهبته؟ الدكتور يجيب السؤال بعبارة عبقرية سمعها من محمد عباس، دكتور الأشعة الشهير بطب طنطا، الذي قال:

- امتهان الأدب هو امتهان للأدب!٦

فعلًا.. في رأي الدكتور لا بد من دخل ثابت، حتى لا يضطر الكاتب للإمساك بقلمه من أجل المال، فالطب جذاب بلا شك ولن يستطيع خالد الاستغناء عنه بسهولة كما فعل زميله الدكتور نبيل فاروق، كما أن الوظيفة الطبية تمنحه مظلة مالية تجعله مستقلًا، فيترك القلم

عندما يريد وينتقي أوقات الإلهام، هو يكتب لمزاجه وليس لإطعام أطفاله.٥

****

الأديب الأمريكي «إدغار آلان بو» والذي كان أول أساتذة خالد، كان مثالًا حيًا على أن الأدب «**لا يقدم المال بسهولة**» بتعبير الدكتور نفسه٥، وحتى في طبعة الأعمال الكاملة لـ«بو» يأتي وصفه بجملة مؤلمة:

- كان أول كاتب أمريكي معروف يكسب لقمة العيش من طريق الكتابة وحدها، مما أدى به إلى حياة صعبة ماليًا ومهنيًا٧

حتى الدكتور نفسه يصفه في موضع آخر بـ«**لم يكسب شيئًا من كتاباته، ولم ينل التقدير إلا بعد وفاته**»٨ وهو نفس ما قاله عن أستاذه الثاني والأهم هوارد فيليب لافكرفت:

- توفي الرجل فقيرًا شاعرًا بأن حياته كانت فاشلة، وهو ما يثير أسئلة عديدة عن تركنا لهؤلاء العباقرة يتعذبون في حياتهم، ثم تخليدهم وكتابة المجلدات عنهم بعد موتهم٩

إذن، فالأساتذة أنفسهم عانوا ويلات الفقر، هل كان تلميذهم خالد يعرف ذلك؟ فاستسلم بسهولة لإرغام العائلة على اختيار الطب؟ وهل ضايقه الأمر فيما بعد بقية حياته؟ خاصة مع اعترفه بحب دراسته «**متأخرًا جدًا**»١٦، ثم قوله صراحة:

- لم أعط للطب حياتي، لكنه أخذها برغم كل شيء١٥

****

الحق أننا لا نجد «الدكتور» ناقمًا على مهنته وتخصصه فيما بعد، بل استثمر هذا الوسام الطبي في مهنته الأدبية المزاجية، معترفًا بأن الطب يمنح الكاتب عدة مزايا مهمة، أولها هيبة اللقب نفسه في المجتمع، رغم أن الأجانب لا يفعلون هذا، فلم نقرأ على غلاف أي كتاب شيئًا مثل د.تشيكوف أو د.مايكل كرايتون، إلا أن الدكتور لم يستطع التخلي عن حرف الدال

الرهيب قبل الاسم، نعم كان في البداية يرى أن المؤلف الذي يحق له أن يفعل ذلك هو الدكتور في الأدب، أو الحاصل على الدكتوراه في موضوع الكتاب، لكنه لم يستطع المقاومة، وأصبح «د.أحمد خالد توفيق» على كل أغلفته، واختار اسمه في شبكة روايات التفاعلية Dr.Ahmed، وحتى اسم التدليل الشائع صار «الدوك»، وتبرير هذا قاله الرجل لنفسه قبل جمهوره:

maktabbah.blogspot.com

- هي جت عليّ أنا؟ دعك من أنني حاصل على الدكتوراه فعلًا، صحيح أنها في الطب، لكن لماذا يبيح كل الأطباء لأنفسهم أن يضعوا اللقب قبل الاسم وأحرّم هذا على نفسي؟ه

والسؤال الآن يتردد: لماذا يحرص الأطبّاء على إعلان مهنتهم في المجتمع المصري؟ يفسّر الدكتور -بلا خجل- أن هذه اللفظة تُعلي من شأن القصة الأدبية لدى القراء، لهذا نقرأ دومًا: د. مصطفى محمود، د. نبيل فاروق.. إلخ، فالناس في العموم يثمّنون كلام الأطباء ويكبّرونه في نفوسهم، باعتبار أي حديث لهم هو «الحكمة مُقطرة» حتى لو تكلم الطبيب في السياسة أو الأدب أو الفن التشكيلي!

هكذا نفهم الدكتور عندما يصدمنا بصراحته مجددًا، حين وجد فيما بعد أن لفظة دكتور تفتح له الكثير من الأبواب المغلقة في عالم الأدب.. تلك الأبواب التي كانت ستبقى موصدة لو أنه كان معلمًا أو محاميًا أو ضابطًا، لهذا يحتفظ الأطبّاء بلقب دكتور وبحرف الدال، حتى بعدما يتركون مزاولة المهنة ويقتصرون على الموهبة والهواية٥.

****

ميزة أخرى من الأهمية بمكان لمهنة الطب، أفادت صاحبنا بقدر عظيم، فهو يهوى الكتابة نعم، فماذا عن صقل قدراته وتشذيب مهاراته؟ الطب لم يكن مجرد مهنة لجلب الرزق، بل مستودع خبرات لن يلقاها في أي مكان آخر، وأقرّ بأنه أفاده في الكتابة بنسبة ٦٠٪ تقريبًا١٨، ثم زادها في موضع آخر إلى ٨٠٪، والعلاقة بين الأدب والطب من أبرز ظواهر الفن، فالكثير الكثير من الأطباء أدباء -كما أسلفنا- والسؤال الدائم هو: لماذا؟

الإجابة واضحة مهما تعددت صورها، فالطبيب يرى ما لا يراه غيره، يقترب من الإنسان -نفسًا وجسدًا- أكثر من أي مهنة أخرى، يسمع صرختي الميلاد والرحيل -ربما- متعاقبتين،

يشهد أشد اللحظات درامية بين المرضى، غنيهم وفقيرهم، الجميع يتساوى في الأسقام، ولهذا يقول الأديب النابغة والطبيب السابق سومرست موم: «**ينبغي لهاوي الأدب أن يعمل في مستشفى بعض الوقت**». حتى يكتسب الخبرة البشرية الأعمق على الإطلاق، بل إن واحدًا من أعظم أدباء الأرض، ما لم يكن أعظمهم، الروسي فيودور دوستويفسكي، قضى وقتًا طويلًا في مستشفى أبيه، قبل أن يتجه للهندسة وأخيرًا إلى الأدب والكتابة بقية عمره.

على مدار كتاباته التي تخطت بضع مئات، وظّف الدكتور معارفه الطبية خير توظيف، بالكثير من المواقف المرتبطة بالطب في القصة، دون إقحام كبير للأحداث، خاصة وأن بطله الأشهر رفعت إسماعيل -بطبيعة الحال- جاء طبيبًا مثل مؤلفه، بل وأعطى المهنة مساحة أكبر فيما بعد في سلسلة كاملة هي سافاري، حيث البطل طبيب هو الآخر، لكنه يعيش أيضًا في مؤسسة طبية إفريقية بنفس اسم السلسلة، هدفها القضاء على الأوبئة في القارة السمراء، الفكرة التي راقت للأطباء القراء وغيرهم، بكل عدد يلتقون فيه بمرض جديد غريب، فيصير الصراع أغرب وأشهى، بين فيروسات أو بكتيريا لا ترى بالعين المجردة، ضد بشر يرتدون المعاطف البيضاء ويتسلحون بالميكروسكوبات والعقاقير.

هكذا نرى أن خالد الأديب استفاد كثيرًا من الطبيب، وربما كان سيفعل الشيء نفسه لو كان مهندسًا أو محاميًا، بالكتابة عما يدور في مهنته، لكنه فاز بأكثر المهن أدبًا ومنحًا لوقود الإبداع الإنساني، لذا يؤكد الدكتور:

- من الطبيعي أن تصنع منك هذه المهنة أديبًا، فقط لو كنت تمتلك الموهبة.. ضع ألف خط تحت «لو كنت تمتلك الموهبة» هذه٥ والواقع أن المقارنة غير عادلة بين الطبيب الأديب وسواه من الأدباء، ولا يوجد تكافؤ فرص من أي نوع بين رجل يعيش وسط بحر أفكار، ورجل قد يجد الفكرة بصعوبة بالغة»١٢

ومع هذا لا ينكر الدكتور أن أنجح الأدباء في عصره ليسوا أطباء، ضاربًا المثل بيوسف زيدان وجمال الغيطاني وصنع الله إبراهيم وخيري شلبي ومحمد البساطي وإبراهيم عبدالمجيد٥

****

في سؤال حتمي للدكتور: كيف نجحت في الموازنة بين الأدب والطب؟ فيأتي رده الساخر المختصر «لم أنجح»٦ فقد لاحظ أن المهنتين تجور إحداهما على الأخرى، يرهقه الطب فيعجز عن صياغة قصصه، ويغمره الأدب فينسى اسم أحد أنواع البكتيريا، هذا التضاد خلق لخالد نوعًا من اللجوء اللاإرادي للمهنتين الضرتين، فهو حين يخفق في إحداهما يهرع للأخرى٥، وكأنه حقق مقولة تشيكوف الشهيرة «**الطب زوجتي والأدب عشيقتي**»!١٠

لم يستطع خالد أن يفر من أمان الطب الوظيفي، حتى بعد تحقيقه النجاح في عالم النشر، ربما لأن طبيعته القلقة تمنعه من المغامرة، أو ربما بلفظ أوضح، المقامرة، رغم أنه يقولها صريحة:

- فيما يخصني أرى أن الاستغناء عن الطب أسهل نوعًا.. هناك مليون طبيب بارع لكني لا أعرف سوى يوسف إدريس واحد٥

لقد مال إذن إلى الأدب، غير أنه لم يحقق هذا الميل وظل طبيبًا حتى آخر يوم في عمره، وكأنه ينفذ ما أراده والده إلى جانب رغبته الشخصية، الشيء الذي لم يكن ليسعد الأب الراحل! لأن ابنه لم يصبح في الأدب (تولستوي)، ولم يصبح في الطب (وليام أوسلر).. وهو ما كان ليرضى لخالد بأقل من مكانة كهذه١١

****

سؤال أخير نطرحه لصاحبنا الدكتور، لو عاد بك الزمن.. هل تختار نفس مشوارك يا دوك؟ وتدخل كلية الطب مرغمًا؟ الدكتور يجيبنا مترددًا بإجابتين شبه متعاكستين:

- إنها حياة عجيبة، لكني لست نادمًا على شيء، ولو قُدّر لي أن أبدأ من جديد لاخترت الاختيارات ذاتها، وارتكبت الأخطاء نفسها٥

وفي الإجابة الأخرى يقول:

- لو لم أحصل على مجموع كاف في الثانوية العامة ودخلت كلية أخرى. ربما دخلت كلية الآداب كما كنت أتمنى أصلًا. كنت أحلم بأن أكون أستاذًا للأدب الإنجليزي٤

كان يشترط إذن أن يكون مجموعه قليلًا! وقتها لن يشعر بال«الاستخسار» ليصبح أستاذًا في المجال الذي يحبه، وهذا بالمناسبة ما حققته أخته الثالثة التي صارت مدرّسًا مساعدًا للمناهج وطرق التدريس بتربية طنطا١٣، نعم لم تدخل كلية «قمة» لكنها تفوقت في ملعبها.

كما لم يغفل عن عشقه للسينما، فقال لصديقه ذات يوم حين سأله: ماذا سيختار إن لم يكن الطب؟ فرد ساخرًا:

- (مونتاج).. أنا لعلمك أفضل مونتير فى مصر١٧

كل هذا انتهى كما نعرف، وخالدنا الآن يبدأ حياته في طب طنطا، رفقة صديقه الآخر أيمن الجندي، مستقبلًا ميدانًا آخر ومعارف أخرى، لا تقل أهمية عن سابقاتها في حياته قصيرة العمر، عظيمة الخبرات.

الفصل الثاني عشر

أيام الحيرة الأولى

التقلب في محيط الأفكار والبحث المنهك عن حقيقتك، أنت تعرف من أنت .. لكنك تجهل تمامًا ما أنت

أحمد خالد توفيق.

في زيارة لصديقه خالد، شَهِدَ أيمن الجندي موقفًا آخر جديرًا بالذكر، يوضح حقيقة رُقي عائلة توفيق وانتفاء العنصرية عنهم، فبينما تجتمع الأسرة مع خطيب الابنة الكبرى ألفت في ردهة المنزل، يظهر بطل هذا الموقف، وهو الوالد من جديد، مدير الشركة المُثقف رفيع الأفكار، الذي لاحظ حدة أيمن في الإعلان عن آرائه الدينية، وحديثه الغاضب بلا سبب، تدفعه رغبة المراهقين المعهودة في الاختلاف والتمرد.١

وقتها تقبل الأب ثورة صديق نجله بسؤال بسيط: لماذا أنت غاضب؟ ليجد أيمن نفسه في موقع المُحاصَر، فالأمر بالفعل لا يستحق الانفعال، ولمزيد من التوضيح والتوجيه، ذكر الأب إبداعات المخترعين من أمثال باستير وإدوارد جينر ونيوتن وتسلا وأينشتاين وبلانك ومدام كوري، سائلًا أيمن من جديد: هل تتصور حياتك بدون المصباح الكهربائي؟ لقد كان إديسون قديمًا أفاد البشرية كما لم يفدها أحد، لهذا فهؤلاء العلماء هم أبطال الإنسانية الحقيقيون.

الأب هنا يبين لنا من جديد مدى ارتقاء نظرته، وإيمانه بالأثر الفعلي للأشخاص، فالمقياس عنده هو النفع للبشر بغض النظر عن أي انتماء آخر، وهذا ما انتقل كما يبدو لربيب البيت خالد، الذي خرج للجامعة يصادق كل من يلقاه، كما فعل مع الكتب من قبل، بلا انحياز لفصيل مُعين أو فكر مُحدد، كأن البشر تحولوا إلى كتب حية أمامه!

- كنت مسالمًا يفضل مراقبة الأمور، ولكني كنت أندمج مع الجميع وأصغي للجميع٢

تمامًا كما حصل في الطفولة مع أبهج أديب المختلف عنه في الديانة ولم يجد أي غضاضة في ذلك، وجد خالد نفسه أمام عدة فصائل مختلفة الفكر والعقلية وربما متعاكسة كذلك، الناصريين والماركسيين وأيضًا أنصار الإسلام السياسي المعروفين وقتها بال«الجماعة الإسلامية»، كلهم كانوا على علاقة طيبة معه، بل ويجتمعون في بيته الواسع، الملتحون منهم والحالمون بدولة الخلافة يزورونه في بيته يوم السبت، والعصبيون الناحلون أنصار البلوريتاريا يحضرون يوم الاثنين، وكلا الفريقين يترك كتبه عند صاحبنا، فتتجاور أشعار المصري هاشم الرفاعي (المحسوب كإسلامي وقتها) بجانب أشعار الإسباني لوركا رمز الشيوعية٣.

يتطور هذا التجمع أيام الخميس، كما يذكر الدكتور رائف وصفي عن هذه المرحلة من حياة خالد:

- وسط دفعته كان محبوبا مقدرا، كنت تجد في صالون بيته الواسع كل خميس ما لا يقل عن خمسين صديق معظمهم من دفعته وبعضهم أصدقائه من خارج دفعته أو من كليات أخرى يتناقشون في جميع مناحي الحياة من أدب وسينما وأحوال عامة٧

****

كان خالد في عمر الحادية والعشرين على مسافته المعقولة من الجميع، فإن راقبته يومًا تظنه إسلاميًا، وفي يوم آخر تجده شيوعيًا، الواقع أنه ينتقي من كل بستان زهرة، ولا يترك بئرًا إلا وشرب منه، في تلك المرحلة التي يبحث فيها المرء عن نفسه، لكن ماذا إذن عن توجهات الدكتور الفعلية وقتها؟ يقول ردًا على أحد القراء: لست شيوعيًا ولربما مِلت للفكر الماركسي في فترة معينة أيام الكلية٨.

هنا يجب ألّا ننسى ما حققته الشيوعية من انتشار وقت نشأة صاحبنا، ومساعدة الروس لمصر في حفظ سمائها من طائرات الصهاينة بعد النكسة، وكما حكينا عن زيارة الطفلة ماروشكا مع الوفد السوفيتي لمدرسة خالد في سن العاشرة، بل إن والده احتفظ بكتاب الصحفي موسى صبري «**شيوعيون في كل مكان**» والذي يؤكد غزو الشيوعية للعالم رغمًا عنه٩.

يغني، بل يترنم.. كأنها صلاة، اقتربت من التلفاز وعيناي بالفعل تغرورقان بالدموع[٥]

هنا لا بد أن أنقل لك موضعًا آخر ذكر فيه الدكتور ذروة غناء فؤاد عبد المجيد:

- لقد شفَّ الرجل تمامًا.. ذاب.. فلم يعد يشعر بنفسه ولا الجمهور. صار جزءًا من الأفلاك والشهب والثقوب السود.. اقترب جدًا من مسام أوراق النباتات حتى غاص فيها، وفهم الشفرة الغامضة لرفرفة أجنحة الفراش، وعرف أين تموت الفصول وأين تبيت الدببة القطبية، وعرف سر ذلك الوميض الذي يتوهج في الأفق في بلاد الشمال.. إنه يعرف أسرار الشفق القطبي.. لقد اقترب.. اقترب جدًا[٤]

يبدو أن هذا الفنان المتصوف القادم من أزمنة الأندلس دخل حياة خالد ليبقى، كأحد نماذج الفن الفريدة، الممتزجة بالكون، وقد «**انحفر في داخله حلم فؤاد عبد المجيد، الشهاب الذي توهج في ظلام شبابه، ثم انطفأ سريعًا، لكنه لن ينسى هذا الوهج أبدًا**»[٥] حتى أن خالد كان يعلّق صورته على جدران غرفته، إلى جانب لوحات رينوار ومحمود سعيد[٢٠]

وفي العشرينيات أيضًا[٦]، قرأ صاحبنا الناقد السينمائي سامي السلاموني، بل وصادقه كذلك عبر مراسلات عديدة تبادلاها معًا، فقد عشق خالد مقالات السلاموني العميقة، المستغرقة في عشق السينما بكادراتها وموسيقاها ومشهديتها، ولم يسع إلى لقاء ناقده المفضل، لأنه أراد الحفاظ على رومانسية الرابطة بينهما، كأن السلاموني قادم من عالم السينما الخيالي هو الآخر وليس بشرًا مثله، إلا أن الرجل أثبت آدميته حين رحل في أغسطس ١٩٩١، وقد علّم تلميذه التواضع في التعامل مع جمهوره، وترك له نصيحة فارقة.

- أحرّضك على أن تحترف الكتابة.. لكني لست مسئولًا عن النتائج!

****

لكنه لم يقتصر على الكتابة والقراءة فقط، لقد ضم إلى معارفه فرعًا هو أبعد ما يكون عن الطب والأدب، ألا وهو الكمبيوتر! يبدو أن هذا الاختراع الجديد سحره، بل يرجّح أنه من أول المتعاملين مع البرمجيات في مصر أو في بيئته على الأقل[١١]، تحديدًا في العام ١٩٨٦ الذي

صار فيه طبيب امتياز٢٢، وغالبًا اهتم بـ«قواعد بيانات أوراكل» التي ذكرها في إحدى قصصه١٢ لكنه بالتأكيد كان يجيد عد لغات للبرمجة، وسيجني ثمارها بطرق شتى، سواءً في تطبيقات الكمبيوتر نفسه أو الأدب.

الرسم أيضًا لم يفارقه، وتطور فيه كثيرًا عن مستوى مجلة تان تان الذي لم يعجب المحرر من قبل، فقد خطت ريشته أعمالًا بديعة على جدران منزله، وفي الجامعة كان لرسمه تجليات أروع، في المجلات الطلابية تحديدًا، حيث حملت الصفحة الأخيرة من مجلة «المجلة» هذا السطر في فريق الإعداد «**الرسوم والإخراج الفني: أحمد خالد توفيق**»١٣

الأغرب أن «خالد» رسم إعلانات خاصة بريشته! أحدهما لثلاجة والأخرى لمطعم١٤، أما أقصى ما يمكننا استنتاجه بشأن هذه الموهبة، فهو ما يقوله الصديق المقرّب أيمن الجندي:

- أنا من النوع الذي يصعب عليه تذكر الوجوه.. لدرجة أنني كنت أجعله يرسم عليّ وجوه الأساتذة قبل امتحانات الشفوي!١٥

المُحزن في أمر موهبته هذه، أنه استثمرها في سنة تخرجه من الجامعة، حين ضمه أيمن إلى فريقه في مادة الصحة العامة، والتي تفرض على الطلبة زيارة ميدانية لقرية، بغرض التثقيف الصحي وتوزيع الأدوية، هكذا صمم خالد مجلة خاصة بهذه الرحلة، وضمن الأسرة المكونة من ٢٢ فردًا، جاء صاحبنا في الرقم ١٣!

نجحت مهمة الزملاء وحصل معظمهم على تقدير «امتياز» إلا طالب واحد.. خالد طبعًا! فقد أبعده خجله الدائم عن أستاذ المجموعة، ليظنّ أن دوره قليلًا رغم قيامه بكل العمل، وبالنهاية اكتفى صاحبنا بالتحسر حين زاره رفاقه، فهذا هو «العادي» في الدنيا من وجهة نظره١٦

ماذا فعل خالد في حبه للرسم؟ لقد هجره كما فعل مع الشعر، لأنه ظل يرى نفسه رسامًا من الدرجة الثانية، خاصة مع صداقته لفنان موهوب لدرجة مخيفة، جعلته يدرك القدر الهائل الذي ينقصه، وهو الدكتور رائف وصفي، هكذا قرر ترك ريشته واعتزال هذا الفن هو الآخر١٧، إنها حاسة الناقد المتضخمة للغاية عنده.

****

لكن حساسيته النقدية لم تمنعه من الكتابة، بعد اعتزال الشعر والرسم، وظل يؤلف القصص القصيرة على النمط الروسي إياه، مولعًا بعالم الواقعية الاشتراكية الأدبي وخاصة كتابات العبقري الروسي مكسيم جوركي قبل الثورة، تلك القصص الراصدة لشقاء الإنسان ومرارة الحياة، فقد تأثر بها وراح يبحث عن مشاهد مماثلة لها في مجتمعه، حتى أنه استلهم إحدى أفكاره الجوركية عند حضوره حفل زفاف فخم، كل شيء فيه يلمع من بدلات مُنشاة وفساتين سهرة، وأثناء الزفة يلقي أحد المدعوين حفنة من الكاراميل على العروسين كالعادة، لينفلق المشهد عن ٤ أطفال فقراء من لا مكان، يهرعون إلى الكاراميل ليجمعوه كالمجاذيب في جوع كافر.

طبعًا لم يمر هذا المشهد من ذهن خالد عاشق الأدب الروسي، لقد شعر أن «جوركي» الكامن في أعماقه يفور كالبركان، وفعلًا كتب قصة عنه مع صديقه أيمن الجندي، شاعرًا أن أغنية الزفة الشهيرة تتحول في ذهنه من **«ياللي ع الوحدة حوّد ع المالح، راسي بتوجعني من زمر امبارح»** إلى **«ياللي ع الوحدة حوّد ع المالح، جوركي بيوجعني من حفل امبارح!»**

هذه القصص كتبها خالد وملأ بها دُرجه بعد أشعاره، لكنها لم تر النور إطلاقًا، رُغم ثلاث محاولات محمومة لنشرها، ونفس الشيء حدث مع السيناريو الكوميدي الذي كتبه في تلك الفترة، ظل حبيسًا هو الآخر.. لماذا؟

الحديث عن هذا، وتفصيله يطول.

****

هل شرعت قصة خالدنا تميل للحزن مجددًا؟ الذي تركناه منذ رحلت الوالدة.. ربما، خاصة وأن الإخفاقات بدأت في البزوغ، الأمر الذي سيتضح أكثر في الفصول القادمة، فرغم أنها عشرينيات صاحبنا، لكنه تساءل مرة في سخرية مريرة:

- ولكن.. متى وكيف سرقوا الثمانينيات مني؟!

****

صحيح.. متى وكيف سرقت منه تلك السنوات؟

وكيف سيستعيد نجاحاته مجددًا؟

هذه -حتمًا- قصة أخرى

نكملها قريبًا بإذن الله

الهوامش

ملحوظة: لقب «الدكتور» فقط يُقصد به أحمد خالد توفيق، أما غيره من الأطباء، فسنكمل اسمهم كاملًا: الدكتور فلان.

المقدمة.

١- مقال للدكتور بعنوان «الدكتور يقول» على موقع اليوم، بتاريخ ٢٤ يونيو ٢٠١٥

٢- مقدمة العدد ٤٣ من سلسلة روايات عالمية للجيب باسم «دورة المذؤوب»

٣- من كتاب «خواطر سطحية سخيفة عن الحياة والبشر» صـ ٣٣

المؤلف

١- مؤلف سلسلة goosebumps الشهيرة في العالم العربي باسم «صرخة الرعب»

الفصل الأول: عن المنبع نتحدث

١- العنوان مكتوب بمجلة تان تان، وفي مقال «كنت صبيًا في السبعينات.. قصيدة ورسمه «نادرتان» لـ أحمد خالد توفيق ونبيل فاروق» على موقع دوت مصر بتاريخ الجمعة، ١٣ أبريل ٢٠١٨

٢- اسم الأب مكتوب بالكامل على مدفن العائلة، في الصور الشهيرة لمرقد الدكتور

٣- من مقالة «أميرة» للدكتور أيمن الجندي في موقع المصري اليوم بتاريخ ٠٨-٠٤-٢٠١٨

٤- في أحاديثهم ومقالاتهم، يستخدم أصدقاء الدكتور دائمًا اسم «خالد»

٥- حوار لنجل الدكتور في موقع الأهرام بعنوان «نجل الراحل أحمد خالد توفيق: أبى كتب رواياته وهو يحدثنا خلال الغداء والعشاء» بتاريخ ٥ أبريل ٢٠١٨

٦- مقال للدكتور بعنوان «مرحبًا بكم في سيرك أبو شفة» في كتاب قهوة باليورانيوم

٧- حوار الدكتور مع أحمد العايدي لموقع www.ouda.org على موقعه الشخصي

٨- مقال للدكتور بعنوان «قرب الجبل امرأة مرحة» في كتاب قهوة باليورانيوم

٩- حوار مع الصديق رائف وصفي بعنوان «رفيق الشباب يحكي قصص الحب الفاشلة في حياة أحمد خالد توفيق» في موقع فيتو بتاريخ ١٢-٥-٢٠١٨

١٠- مقال «٣ سنوات على رحيل العراب.. حكاية من دفتر حياة أحمد خالد توفيق» على موقع فيتو بتاريخ ٢ -٤ - ٢٠٢١

١١- مقال للدكتور أيمن الجندي بعنوان «ذكرى رجل وديع» المصري اليوم ٠٢-٠٤-٢٠١٩

١٢- كتاب «تويتات من العصور الوسطى» صـ١٦

١٣ - بريد القراء، أسطورة اللهب الأزرق، العدد ١٣

١٤ - لقاء مع الدكتور في برنامج «حالة إبداع» على يوتيوب

١٥ - لقاء مع الدكتور في برنامج «ممكن» على يوتيوب

١٦- مقال للدكتور بعنوان «عن الرعب في بلد مرعوب» من كتاب دماغي

١٧- لقاء الدكتور في برنامج «عز الشباب» على فضائية روتانا مصرية

١٨- مقال للدكتور بعنوان «من فعلها» من كتاب «اللغز وراء السطور»

١٩- مقال للدكتور أيمن الجندي بعنوان «النشأة»، صحيفة المصري اليوم بتاريخ ٢٠١٨-٠٤-٠٧

٢٠- مقال «أنا لم أتغير.. الحياة تغيرت» من «كتاب الغث من القول» صـ ٢٦٢

٢١- مقال للدكتور بعنوان: أن تكتب فى البيت، على موقع بص و طل، بتاريخ ١٤ سبتمبر ٢٠٠٩

٢٢- العدد ٣٥ من سلسلة فانتازيا «ما أمام الطبيعة»

٢٣- مقال للدكتور بعنوان «شباب عاوز الحرق» من كتاب دماغي كده

٢٤- رد الدكتور في موضوع «أسئلة رواياتية سخيفة» في شبكة روايات التفاعلية، بتاريخ ٢٩- ٦ - ٢٠١١

٢٥- مقال للدكتور أيمن الجندي بعنوان «النشأة» في موقع «المصري اليوم» السبت ٢٠١٨-٠٤-٠٧

٢٦- مقال للدكتور بعنوان «هيافة» في كتاب «فقاقيع»

٢٧- مقال للدكتور بعنوان «الفن التاسع - ١» مجلة الشباب - مارس ٢٠١٤

٢٨- مقال للدكتور بعنوان «تان تان» في كتاب «قهوة باليورانيوم»

الفصل الثاني: هو يحب السيما والسجق

- ١ كتاب أفلام الحافظة الزرقاء، صـ ٩

٢- مقال للدكتور بعنوان «موضوع محلي جدًا» التحرير - ٢٨ يوليو ٢٠١٤

٣- مقال للدكتور بعنوان «النائمون؟ عملية سهلة» الاتحاد - ٢٦ نوفمبر ٢٠١٠

٤ - من كتاب «قصاصات قابلة للحرق»

٥ - حديث للدكتور عن نفسه في موقعه الإلكتروني القديم - لم يعد متاحًا الآن - وله نسخة محفوظة على منتدى «ستار تايمز» بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٧

٦ - نبذة الغلاف الخلفي للعدد ٤٢ من فانتازيا «الملل بعينه»

٧ - العدد ٢٨ من ما وراء الطبيعة، أسطورة آخر الليل، صـ ٦٤

٨ - مقال للدكتور بعنوان «لا ذنب لي» في كتاب «زغازيغ»

٩ - مقال للدكتور بعنوان حديث عن العيد، موقع إضاءات - ٣١ أغسطس ٢٠١٧

١٠ - مقال للدكتور بعنوان «أنا لم أتغير.. الحياة تغيرت» من «كتاب الغث من القول» صـ ٢٦٢

١١- مجموعة ردود وحوارات طويلة للدكتور على منتدى «ليلاس» بتاريخ ١٦-١٢-٢٠٠٨

١٢- أسطورة النبات، صـ ٨٩

١٣- مقال للدكتور أيمن الجندي بعنوان «مُعلمي للسينما» في موقع المصري اليوم، بتاريخ الإثنين ٣٠-٠٤-٢٠١٨

١٤- مقال للدكتور بعنوان «البحث عن شبشب» في موقع اليوم الجديد بتاريخ ٢٧ أبريل ٢٠١٦

الفصل الثالث: عبد الناصر يريد دمًا من بطني!

١- مثل مقال للدكتور بعنوان «ناد بابا» الاتحاد الإماراتية ١٠ مارس ٢٠١٢، ومقال «ملاك صغير جدًا» في كتاب فقاقيع صـ ٢٥

٢- ما وراء الطبيعة، العدد ٧٠، الحلقات المنسية صـ ٩٣

٣- ما وراء الطبيعة، العدد ١٠، حلقة الرعب صـ ١٤٩

٤- كتاب قصاصات قابلة للحرق صـ ٢٦

٥- ما وراء الطبيعة، العدد ٣٠، أسطورة بعد منتصف الليل

٦- ما وراء الطبيعة، العدد ٤٦، أسطورة طفل آخر

٧- ما وراء الطبيعة، العدد ١٠، حلقة الرعب صـ ١٤٦

٨- مقال للدكتور بعنوان «عن الرعب في بلد مرعوب» من كتاب «دماغي كده»

٩- مقال للدكتور بعنوان «وقائع اختفائي الغامض» الاتحاد الإماراتية ٢٥ مايو ٢٠٠٨

١٠ - حوار بعنوان «حان لرفعت إسماعيل أن يستريح» بجريدة مصراوي، ١٢ /٢ / ٢٠١٥

١١- مقال للدكتور بعنوان «أنت وقطة شرودنجر» من كتاب «شربة الحاج داوود»

١٢ - العدد ٥٩ من ما وراء الطبيعة

١٣ - كتاب «قصاصات قابلة للحرق» صـ١٠٢

١٤- مقال للدكتور بعنوان «فلنتذكر» التحرير - ٨ أكتوبر ٢٠١٦

١٥ - مقال للدكتور بعنوان «فليتألموا» الدستور - ١١ مارس ٢٠٠٨

١٦ - مقال للدكتور بعنوان «عن العصر الذهبي لمجلة سمير» في كتاب «دماغي كدة»

١٧ - لقاء مع الدكتور في برنامج «حالة إبداع»

١٨ - من ردوده على موقعه الشخصي

الفصل الرابع: مدرسة الإصلاح

٠ - مقال للدكتور بعنوان «الأستاذ مزروع هو الحل» في كتاب «شربة الحاج داود»

١ - مقال للدكتور بعنوان «موضوع محلي جدًا» بموقع التحرير - ٢٨ يوليو ٢٠١٤

٢ - مقال «ذكريات مدرسة الإصلاح» بموقع التحرير - ١٣ مايو ٢٠١٣

٣ - مقال للدكتور بعنوان «سقارة القطب الشمالي» بكتاب فقاقيع

٤ - مقال للدكتور بعنوان «صديـــــــق» في بوابة الشباب، بتاريخ أكتوبر ٢٠١٣

٥- مقالة للدكتور «أنت وقطة شرودنجر» من كتاب «شربة الحاج داوود»

٦- مقال للدكتور أيمن الجندي بعنوان «الشهرة والسعادة» في موقع المصري اليوم، بتاريخ ٢٠١٨-٠٥-٣٠

٧- مقال للدكتور بعنوان «لا ذنب لي» من كتاب «زغازيغ»

٨- الصور المنتشرة للدكتور في صغره لا تظهره مرتديًا للنظارة، فمن الواضح أنه سيضطر لهذا فيما بعد، بعكس أبهج الذي شاهده خالد أول مرة بنظارته (كما ورد في المصدر ٤)

٩- صورة الزيارة مُرفقة بمقال «صديق» في مدونة د.أحمد خالد توفيق، وعلى فيس بوك.

١٠- العدد ٣٠ من ما وراء الطبيعة «أسطورة بعد منتصف الليل» صـ١٦

١١- مقال «٣ سنوات على رحيل العراب.. حكاية من دفتر حياة أحمد خالد توفيق» على موقع فيتو بتاريخ ٢ -٤- ٢٠٢١

١٢ - مقال للدكتور بعنوان «مثل الجذمور بالضبط» في كتاب «اللغز وراء السطور»

١٣ - من ردوده في بريد موقعه الشخصي

الفصل الخامس: الروس قادمون

٠ - مقال للدكتور بعنوان «جوركي في الأعماق» في اليوم الجديد بتاريخ ٥ أكتوبر ٢٠١٦

١- لقاء مع الدكتور في برنامج «ممكن» على فضائية CBC

٢- مقال للدكتور بعنوان بلهاء في الأوقيانوسية وروايات أخرى (١-٢) على موقع إضاءات

٣- حوار للدكتور على موقع الإمارات اليوم بعنوان «أحمد خالد: «أدب الرعب» الأكثر مبيعًا في مصر» بتاريخ ٢٥ مارس ٢٠١٧

٤- مقال للدكتور بعنوان «المتحذلقون - ١» مجلة الشباب - ١ أكتوبر ٢٠١٤

٥- حديث للدكتور عن نفسه في موقعه الإلكتروني القديم - لم يعد مُتاحًا الآن - وله نسخة محفوظة على منتدى «ستار تايمز» بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٧

٦- مقال للدكتور بعنوان «للمرة الثانية»، التحرير - ٢٩ أكتوبر ٢٠١٢

٧- مقدمة العدد ٨١ من سلسلة روايات عالمية للجيب، بعنوان «أمريكي في بلاط الملك» تأليف مارك توين

٨- رد الدكتور بتاريخ ١٩ - ٨ - ٢٠١١ على موضوع في شبكة روايات التفاعلية

٩ - من كتاب «قصاصات قابلة للحرق»

١٠ - من كتاب «أسطورة بعد منتصف الليل»

١١- مقال للدكتور بعنوان «من دون هيكل» في موقع التحرير، بتاريخ ٢٠ فبراير ٢٠١٦

١٢- مقال للدكتور بعنوان «عن العصر الذهبي لمجلة سمير» في كتاب «دماغي كدة»

١٣- مقال للدكتور بعنوان «تان تان» في كتاب «قهوة باليورانيوم»

١٤- مقال للدكتور بعنوان «افعلها الآن» في مجلة الشباب، بتاريخ ٣١ ديسمبر ٢٠١٤

١٥- مقال «٣ سنوات على رحيل العراب.. حكاية من دفتر حياة أحمد خالد توفيق» على موقع فيتو بتاريخ ٢ -٤ - ٢٠٢١

١٦- مقدمة كتاب «أفلام الحافظة الزرقاء»

١٧- مقدمة كتاب «تويتات من العصور الوسطى»

١٨ - مقال للدكتور بعنوان «التقمص» في كتاب «اللغز وراء السطور»

الفصل السادس: غزال أسمر

١ - مقال للدكتور بعنوان «أين هي» في كتاب «شاي بالنعناع»

٢ - مقال للدكتور بعنوان «حياة ضاعت» في كتاب «فقاقيع»

٣ - ندوته في مكتبة الإسكندرية، منشورة على يوتيوب

٤ - رسالته إلى مجلة مجلة تان تان المجلد الستون العدد ٤٣ السنة السابعة

٥ - مقال «كنت صبيًا في السبعينات.. قصيدة ورسمه «نادرتان» لـ أحمد خالد توفيق ونبيل فاروق» موقع دوت مصر بتاريخ الجمعة، ١٣ أبريل ٢٠١٨

٦- ندوة دكتور أحمد خالد توفيق في مكتبة الإسكندرية

٧- المجموعة القصصية لست وحدك، صـ ٣٦

٨ – مقال للدكتور أيمن الجندي بعنوان «الشهرة والسعادة»، جريدة المصري اليوم بتاريخ ٢٠١٨-٠٥-٣٠

الفصل السابع: فقدان وأشعار وصديق

١ - مقال للدكتور بعنوان «حيث الكل في واحد» من كتاب «دماغي كدة»

٢ -مقال للدكتور بعنوان «في ذكرى مجزرة مدرسة بحر البقر» بموقع إنسانيات

٣ - كتاب «تويتات من العصور الوسطى» صـ ٩٣

٤ - مجلة تان تان المجلد الستون العدد ٤٣ السنة السابعة، من موضوع في «شبكة روايات التفاعلية» بنشر العضو «غائم جزئيًا»

٥- مقال للدكتور بعنوان «استقالة شاعر» من كتاب «اللغز وراء السطور»

٦- مقال للدكتور أيمن الجندي بعنوان «بالإصرار والعمل»، المصري اليوم ١٦-٠٤-٢٠١٨،

٧- مقال للدكتور أيمن الجندي بعنوان «مواهب متعددة» لأيمن الجندي، صحيفة المصري اليوم ١١-٠٤-٢٠١٨

٨ - رد للدكتور في أحد مواضيع «شبكة روايات التفاعلية» بتاريخ ٣ / ٧ / ٢٠١٠

٩ - مقال للدكتور بعنوان «مرحبًا بكم في سيرك (أبو شفة)» في كتاب قهوة باليورانيوم

٩ - حوار للدكتور بعنوان «حان لرفعت اسماعيل أن يستريح» بجريدة مصراوي، ١٢ /٢ / ٢٠١٥

١٠ - مقال للدكتور بعنوان «رمضان جانا» ببوابة الشباب، ٣ أغسطس ٢٠١٢

١١ - مجموعة ردود وحوارات طويلة للدكتور على منتدى «ليلاس» بتاريخ ١٦-١٢-٢٠٠٨

١٢ - لقاء مع الدكتور في برنامج «حالة إبداع»

١٣ - ندوته في مكتبة الإسكندرية، منشورة على يوتيوب

١٤ - مقال للدكتور بعنوان «تان تان» في كتاب «قهوة باليورانيوم»

١٥ - مقال للدكتور بعنوان «أب وأم» اليوم الجديد - ٢٢ يونيو ٢٠١٦

١٦- مقال للدكتور أيمن الجندي بعنوان «صديق العمر» على موقع المصري اليوم بتاريخ الأربعاء ٠٤-٠٤-٢٠١٨

١٧- مقال للدكتور بعنوان «شفرة التواريخ» في مجلة الشباب بتاريخ ٢٤ فبراير ٢٠١١

١٨- مقال للدكتور بعنوان «بنتولد» في مجلة الشباب بتاريخ ٢١ يناير ٢٠١٥

الفصل الثامن: هادم الأساطير

١ - مقال للدكتور أيمن الجندي بعنوان «بطلات رواياته.. وجعل الشباب يقرأون» على صفحته الشخصية بتاريخ ١٣/ ٥/ ٢٠١٨

٢ -كتاب «مُذكرات مصطفى محمود» للسيد الحراني، دار اكتب، الطبعة ١٣ صـ ٥٦ (أغلب المذكور عن كتاب الله والإنسان من هذا المرجع)

٣ - الله والإنسان، مصطفى محمود، طبعة دار الجمهورية

٤ – كتاب «تويتات من العصور الوسطى» صـ١٦

٥- من رده في شبكة روايات التفاعلية بتاريخ ١٣ / ١٠ / ٢٠١٠

٦- من خواطر سطحية سخيفة

٧- لقاء مع الدكتور في برنامج «ممكن» على فضائية CBC

٨ - في كهوف دراجوسان، العدد الخاص الأول، صـ ٦٥

٩ - رد الدكتور في موضوع «أسئلة رواياتية سخيفة» في شبكة روايات التفاعلية، بتاريخ ٢٩- ٦ - ٢٠١١

١٠ – مقال «البست سيلر»: أو كيف قتل أحمد مراد دكتور جيكل؟ على موقع «مدينة»

١١- العدد ٥١ من ما وراء الطبيعة، أسطورة الرقم المشئوم، بريد القراء صـ١٥٥

١٢- حوار مع الدكتور بعنوان «حان لرفعت اسماعيل أن يستريح» بجريدة مصراوي، ١٢ / ٢ / ٢٠١٥

١٣- ما وراء الطبيعة، العدد ٣٠، أسطورة بعد منتصف الليل صـ١٢

١٤- حوار للدكتور مع الصحفي سامح فايز بكتاب «بيست سيلر»

١٥- من موقع الدكتور الرسمي المحفوظ على web.archive.org

الفصل التاسع: بطل ولكن

٠ - العدد ٢٠ من ما وراء الطبيعة، حكايات التاروت

١ - مقال للدكتور بعنوان « ستة أعوام تقريبا» مجلة الشباب ٢٩ / ٦ / ٢٠١٠

٢ - لقاء الدكتور في برنامج «وصفوا لي الصبر» على فضائية TEN

٣ – لقاء الدكتور في برنامج «عز الشباب» على فضائية روتانا مصرية

٤ - مقال للدكتور بعنوان «بلهاء في الأوقيانوسية وروايات أخرى (٢-٢)» على منصة إضاءات

٥- مجموعة ردود وحوارات طويلة للدكتور على منتدى «ليلاس» بتاريخ ١٦-١٢-٢٠٠٨

٦ - كتاب (٣٠) صـ١٢، وهو عدد خاص بمناسبة مرور ٣٠ عامًا على روايات مصرية للجيب

٧ - لقاء في برنامج «حالة إبداع»

٨- لقاء مع الدكتور في برنامج «ممكن» على فضائية CBC

٩ - حديث الدكتور عن هيركيول بوارو في كتابين من سلسلة فانتازيا، العدد ١ قصة لا تنتهي، والعدد ٢٠ من فعلها

١٠ - كتاب «أرض الخيال» لميشيل حنا، الفصل الخاص بالفهد الوردي كما يسميه

١١- مقال للدكتور بعنوان «جولة فنية» الدستور - ٢٨ سبتمبر ٢٠١٠

١٢ - العدد ١٩ من سلسلة فانتازيا بعنوان «خمسة منهم»

١٣ - مقال للدكتور بعنوان «من فعلها» من كتاب «اللغز وراء السطور»

١٤ - قصة «فكرة غير عادية» في العدد ٣٠ «بعد منتصف الليل»

١٥ - مقال للدكتور بعنوان «مخلوقات كانت رجالًا ٢» في كتاب «دماغي كدة»

١٦ - حوار الدكتور مع أحمد العايدي لموقع www.ouda.org على موقعه الشخصي

١٧ - حوار الدكتور بتاريخ ١ أكتوبر ٢٠٠٣ في موقع «ديوان العرب»

١٨- ندوة الدكتور بمكتبة الاسكندرية

١٩- مقال للدكتور أيمن الجندي بعنوان «صديق العمر» على موقع المصري اليوم بتاريخ الأربعاء ٠٤-٠٤-٢٠١٨

٢٠- مقال «كنت صبيًا في السبعينات.. قصيدة ورسمه «نادرتان» لـ أحمد خالد توفيق ونبيل فاروق» موقع دوت مصر بتاريخ الجمعة، ١٣ أبريل ٢٠١٨

٢١ - ندوة دكتور أحمد خالد توفيق في مركز شبابيك بالمقطم، تغطية مجلة كلمتنا

٢٢ - مقال بعنوان «الأدب الروسي.. سر الظهور الكبير لـ أحمد خالد توفيق» منشور على موقع الدستور بتاريخ ١٨ يونيو ٢٠٢١

٢٣- ندوة للدكتور في مكتبة الإسكندرية، منشورة على يوتيوب

٢٤ - لقاء للدكتور في برنامج بتوقيت مصر، على يوتيوب

٢٥- لقاء مع الدكتور في الدوحة، يحاوره الإعلامي مسعود عبدالهادي

٢٦- كتاب «قصاصات قابلة للحرق»

الفصل العاشر: رعب مترجم

١ - مقال للدكتور بعنوان «أب وأم» اليوم الجديد - ٢٢ يونيو ٢٠١٦

٢ -مقال للدكتور بعنوان «برعم الوردة» في كتاب «دماغي كدة»

٣ - مقال للدكتور أيمن الجندي بعنوان «كيف استطاع أن يجيد اللغة الإنجليزية؟» المصري اليوم، ١٣-٠٤-٢٠١٨

٤ - لقاء مع الدكتور في الدوحة، يحاوره الإعلامي مسعود عبدالهادي

٥- مقال للدكتور بعنوان «قرب الجبل امرأة مرحة» في كتاب قهوة باليورانيوم

٦- مقال "البست سيلر": أو كيف قتل أحمد مراد دكتور جيكل؟ على موقع «مدينة»

٧- لقاء مع الدكتور في برنامج «حالة إبداع»

٨ - صفحة «حلمي مراد» على موقع هنداوي

٩- مقال للدكتور بعنوان «بلهاء في الأوقيانوسية وروايات أخرى (٢-٢)»

١٠- كتاب وجوه للحب.. بقلم د.أحمد خالد توفيق، د.نبيل فاروق

١١- من كتب: موسوعة الظلام، ما وراء العالم.. بقلم الدكتور

١٢- فلسفة الجمال والتذوق الفني، تأليف د.أماني غازي جرار

١٣- قلعة الأسرار، العدد ٦٦ من روايات عالمية للجيب ترجمة الدكتور

١٤- مقدمة العدد ٣٦ من روايات عالمية للجيب، ترجمة الدكتور

١٥- العدد ٦٠ من فانتازيا

١٦- ندوة الدكتور بمكتبة الاسكندرية

١٧- حوار الدكتور مع أحمد العايدي لموقع www.ouda.org على موقعه الشخصي

١٨- مقال للدكتور بعنوان «صديق» بوابة الشباب - أكتوبر ٢٠١٣

١٩ - حوار الدكتور لمجلة «إعدلها» العدد الأول، بتاريخ نوفمبر ٢٠١٢

٢٠- مجموعة ردود وحوارات طويلة للدكتور على منتدى «ليلاس» بتاريخ ١٦-١٢-٢٠٠٨

٢١- مقال للدكتور بعنوان «أفلام الحافظة الزرقاء.. فورست جامب» على منصة «أخبارك» وقاعدة بيانات الأفلام على الإنترنت IMDb

٢٢- كتاب خواطر سطحية سخيفة عن الحياة والبشر، صـ ٢٤

٢٣- مقدمة كتاب «أفلام الحافظة الزرقاء»

٢٤- لقاء الدكتور في برنامج «بلدنا بالمصري» على يوتيوب

الفصل الحادي عشر: جعلوه فانجعل

١ - مقال للدكتور بعنوان «المختار من المختار» مجلة الشباب - ٣١ أغسطس ٢٠١٠

٢ -مقال للدكتور بعنوان «مرحبا بكم في سيرك أبو شفة» في كتاب قهوة باليورانيوم

٣ – مقال للدكتور بعنوان «صديق» بوابة الشباب - أكتوبر ٢٠١٣

٤ – مقالة للدكتور بعنوان «أنت وقطة شرودنجر» من كتاب «شربة الحاج داوود»

٥- مقالة للدكتور بعنوان «متلازمة الطب والأدب» من كتاب «اللغز وراء السطور»

٦- ندوة الدكتور بمكتبة الاسكندرية

٧- هامش الأعمال القصصية الكاملة لـ«إدغار ألن بو» طبعة دار الكتاب الجديد المتحدة ٢٠٢١

٨ - موسوعة الظلام، طبعة دايموند بوك

٩ - مقدمة العدد ٦٨ من روايات عالمية للجيب «نداء كتولو»

١٠- مشاهير الأطباء في العالم، دار الكتاب الثقافي، طبعة ٢٠١٧

١١ - حوار الدكتور مع أحمد العايدي لموقع www.ouda.org على موقعه الشخصي

١٢ - مقال للدكتور بعنوان حكايات الدم، اليوم الجديد - ٢٥ نوفمبر ٢٠١٥

١٣ - مقال للدكتور بعنوان «الدكتور يقول»، اليوم - ٢٤ يونيو ٢٠١٥

١٥ - من كتاب «خواطر سطحية سخيفة»

١٦- حوار بعنوان «حان لرفعت اسماعيل أن يستريح» بجريدة مصراوي، ١٢ /٢ / ٢٠١٥

١٧- مقال للدكتور أيمن الجندي بعنوان «السينما: حلم خالد الذى لم يتحقق» موقع المصري اليوم بتاريخ ٢٣-٠٤-٢٠١٨

١٨- لقاء مع الدكتور في برنامج «حالة إبداع»

١٩- لقاء مع الدكتور في الدوحة، يحاوره الإعلامي مسعود عبدالهادي

الفصل الثاني عشر: أيام الحيرة الأولى

٠ - مقال للدكتور بعنوان «سجن الديابة ورق» من كتاب «شاي بالنعناع»

١ - مقال للدكتور أيمن الجندي بعنوان «النشأة» في موقع «المصري اليوم» بتاريخ ٠٧-٠٤-٢٠١٨

٢ - مقال للدكتور بعنوان «عقدة الممرض والمخبر .. وأشياء أخرى» في موقع اليوم الجديد، بتاريخ ٣١ أغسطس ٢٠١٦

٣ - مقال للدكتور بعنوان «سجن الديابة ورق» في مجلة الشباب، بتاريخ ٣١ مارس ٢٠١١

٤ - مقال للدكتور بعنوان «هل كان هنا حقًا؟» في كتاب «دماغي كدة»

٥ - فيلم وثائقي بعنوان «غريب الدار.. عن حياة فؤاد عبد المجيد» على يوتيوب

٦ - مقال للدكتور بعنوان «السلاموني يتكلم» في مجلة الشباب بتاريخ ١ أغسطس ٢٠١٠

٧ - حوار مع الدكتور رائف وصفي بعنوان «رفيق الشباب يحكي قصص الحب الفاشلة في حياة أحمد خالد توفيق» في موقع فيتو بتاريخ ١٢-٥-٢٠١٨

٨ - من موقع الدكتور الرسمي المحفوظ على web.archive.org

٩ - مقال للدكتور بعنوان «للمرة الثانية» في موقع التحرير بتاريخ ٢٩ أكتوبر ٢٠١٢

١٠ - العدد ٣٦ من فانتازيا بعنوان «حب في أغسطس» صـ ١٠٥

١١ - مقدمة كتاب «تويتات من العصور الوسطى»

١٢ - العدد ٤٨ من فانتازيا بعنوان «اللغز» صـ ١٠٧

١٣ - صورة المجلة منشورة على حساب فيسبوك الخاص بـ» مدونة د أحمد خالد توفيق» بتاريخ ٩-١٠-٢٠١٨

١٤ - الإعلانان على نفس صفحة المصدر السابق

١٥ - مقال للدكتور أيمن الجندي بعنوان «ندوة ثقافية» على صفحته بتاريخ ٢/٢/٢٠٢٢

١٦ - منشور للدكتور أيمن الجندي على صفحته بتاريخ ٤/١٠/٢٠١٩

١٧ - مقال للدكتور أيمن الجندي بعنوان «مواهب متعددة» في موقع المصري اليوم بتاريخ

١٨ - مقال للدكتور بعنوان «بنتولد» في مجلة الشباب بتاريخ ٢١ يناير ٢٠١٥

١٩ - من كتاب «خواطر سطحية سخيفة عن الحياة والبشر» صـ ١٠٣

٢٠ - مقال للدكتور بعنوان «حسد» في كتاب دماغي كدة

٢١ - لقاء للدكتور في برنامج «أنت حر» على يوتيوب

٢٢ - مقال للدكتور بعنوان «امرأتان» بموقع اليوم الجديد بتاريخ ١٠ أغسطس ٢٠١٦

٢٢ - لقاء للدكتور في برنامج بتوقيت مصر، على يوتيوب

شُكر واجب النفاذ

لأنهم طيبون نبلاء ولا أحد ينكر ذلك!

هذا النوع من الكتب تحديدًا، يكون جامعًا لإسهامات كثيرة، ولولا الكثيرون الطيبون لما خرج أبدًا للنور، فإذا عجزت الذاكرة عن تذكر الجميع، إذن كالعادة.. نبدأ بالأقوى نبضًا في عقلي الآن، وللبقية.. نلتقي في الجزء الثاني بإذن المولى ولكن.. بالله ذكّروني!

من عجيب القول أن أشكر الدكتور أحمد خالد توفيق رحمه الله، لكنني سأفعل، صحيح أن الباحث يجب أن يتجرد ويُحايد، لكنني هنا في مساحة شخصية، لِذا أقول له: إن اكتشافي لك في لحظة ليلية مصادفة خلال العام ٢٠٠٧، كان من أعظم الأحداث في حياتي بلا شك، والحديث سيطول في الجزء الثاني أيضًا بحول الله

- البداية في الشكر دون شك للرائع الكريم، محمد أحمد خالد توفيق، لترحيبه بالعمل وتعميده، ولكل جديد يسعدنا به من عالم والده العظيم الراحل، سواء المؤلفات الجديدة أو الكتب البحثية.

- كل العرفان والتحية لا يوفيان حق الدكتور أيمن الجندي، ودود الحديث نبيل الفكر، الذي بارك فكرة الكتاب وقَبِل اعتمادي على مقالاته
إلى صاحب مدونة أحمد خالد توفيق الذي قال «أضناني البحث دوما عن كتاباته.. ففكرتُ في تجميعها ليسهل على عشاقه مثلي متابعة إبداعاته» وهأنذا أقولها له: لولاك لأضناني البحث بعدد حروف مقالات الدكتور المنشورة على المدونة التي ربما قاربت المليون.. فكل الامتنان «المليوني» لك يا رجل.

- إلى العزيز أحمد صبري غباشي، الممثل والمخرج والمؤلف الموهوب، الأقرب إلى الدكتور، والمُعين دومًا والمُشجّع دون حد.

- إلى الخبيرين في العالم التوفيقي، إبراهيم لطفي وهنا إبراهيم، أرفع البيريه لكرمكما

العظيم في إرشادي لمواضع معينة -كثيرة أحيانًا- في المصادر.

- شكر آخر واجب إلى الدكتور رائف وصفي، لعونه وكرمه.

- للكوميكسي البديع هاني الطرابيلي، ومساعداته التي لا تنقطع في كل مرة، الحساب «ثقِل» يا كينج، سأضيفها عليه.

- بالنهاية.. يسهل على المرء أن يشكر دائرته الشخصية بالكلمات، لكن ما يعتمل داخلي نحوهم سيحتاج حتمًا إلى كتاب آخر، وعزائي أنهم يعرفون قدرهم، أسرتي ورفاقي المقربين، في كل مرة استمعتم لأفكاري المتمنية وطموحاتي الحالِمة، لكم أودّ يومًا أن أشارككم نجاحًا حقيقيًا وأقدم لكم امتنانًا على أرض الواقع.

- حبي الجارف لأبي وأخي ولمحمد جمال، وللأصدقاء الذين لن أذكر أسماءهم حتى لا أنسى أحدًا منهم، وكل قريب آخر في عائلتي التي أكرمني الله وزادت مؤخرًا.

وعشقي اللامنتهي لشمسي وقمري، أمي وزوجتي، أدامكما الله لي، لا سعد لي في هذا العالم بدونكما.

---

(1) العنوان مستوحى من مقالة للدكتور بعنوان «هو يحب يسرا»

(2) placeur: (بالفرنسية) كشاف السينما الذي يقود الجمهور في الظلام إلى المقاعد

(3) فيلم أمريكي من إنتاج ١٩٦٦

(4) التاريخ وفقًا لصفحة د.أحمد خالد توفيق (الأصلية الغدارة في حياته) على فيسبوك.

(5) إحدى التعبيرات الشهيرة في كتابات د.أحمد